إبحار فى ملكوت الله

تأليف

مأمون غريب

١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م

مركز الكتاب للنشر

الطبعة الأولى
٢٠٠٠



مصر الجديدة : ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة
تليفون : ٢٩٠٨٢٠٣ - ٢٩٠٦٢٥٠ - فاكس : ٢٩٠٦٢٥٠

مدينة نصر : ٧١ شارع ابن النفيس - المنطقة السادسة - ت : ٢٧٢٣٣٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) ﴾ [فصلت: ٣٠]

صدق الله العظيم

مقدمة

جئنا إلى الحياة لنمضى فيها ما شاء الله أن نعيش، ثم تنتهى هذه الحياة، وتأتى أجيال جديدة، ويتابع الزمن دورانه، ومع دوران الزمان تتعاقب أجيال وراء أجيال. . والحياة ماضية فى طريقها. . الشمس تدور فى فلكها والكواكب التى تدور فى فلكها تدور، والشمس هى الأخرى تدور فى مجرتها. . وملايين المجرات تدور فى أفلاكها. . والحياة مستمرة. . رغم تعاقب الأجيال. . وتغير الحضارات وأنماط الحياة. . إلى أن يإذن الله لهذه الحياة أن تنتهى، وندخل دائرة أخرى إلى أن يحين اليوم الموعود. . يوم النفخ فى الصور. . وعودة الخلائق إلى حياتها الأبدية.

. . ونحن لانعرف ماهو الزمن. . أو هو على حد تعبير أحد علماء الفيزياء والحائز على جائزة نوبل (ريتشارد فيتمان) عندما سئل عن الزمن قال:

- نحن الفيزيائيين نتعامل مع الزمن كل يوم، ولكن لاتسألنى ماهو. إنه من العسير جداً التفكير فى ذلك.

والزمن هل هو هذا التيار المتدفق منذ الأزل؟ ولكن إلى أين؟

إن أنيشتين عندما جاء بنظريته النسبية. . اعتبر الزمن بُعداً، وهو الذى يكسب الأحداث معنى. . بعداً كالطول والعرض والارتفاع.

وعرفت الحضارات الإنسانية كيف تقسم السنة إلى فصول وأيام حتى يمكنها أن تسجل حركة الزمن، والتعامل فى حياتها من خلال هذا الاكتشاف، إلى أن عرف الإنسان كيف يقسم وقته بالساعات والدقائق والثوانى، حتى ينظم أمور حياته من خلال الزمن.

وقد أعجبتنى دراسة عن الزمن ترجمها الصديق فؤاد شاكر تحت عنوان (لغز الزمن).. والذى يتحدث فيها عن آراء العلماء فى (الزمن).. وكيف أن دورة الأرض منذ خمسمائة مليون سنة كانت تتم فى عشرين ساعة فقط، وبعد مرور مائتى مليون سنة أخرى من الآن سيصبح يوم الأرض ٢٥ ساعة.. ويرى أن قياس الزمن وتحديده بدقة -لدى العلماء المتخصصين - أيسر وأفضل من قياس المواد والأشياء، لأن الزمن لايملك جزيئات تتراقص فوق المكان ومن حوله، ولكن هل ذلك كله يفتح لنا كوة ولو صغيرة نتحسس منها معرفة:

- ماهو الزمن؟

إن ساعات بيان الوقت ماهى إلا أجهزة وأدوات محددة القدرة، مهما بلغت دقتها ومزاياها.

يقول أحد العلماء المتخصصين فى ضبط وقياس التوقيت العالمى:

«إن الماضى لا وجود له إلا فى ذاكرتنا وكذلك المستقبل: لا

وجود له إلا فى توقعاتنا. . إن أقصى ما تقدمه الساعة (التى تبين الوقت) هو مقدار الزمن الذى انتهى من لحظة أو لحظات، فهى تعجز حتى عن تبيان الزمن اللحظى».

وتقول الدراسة:

«اليوم أصبح فى مقدور العلماء تقسيم الثانية إلى آلاف وملايين وبلايين الأجزاء. وقد يكون لديهم تصور عن بدء الزمن على أرضنا، وأنه لن يدوم إلى الأبد. . ويؤكد البيولوجيون لنا أن أجسامنا ذاتها هى فى الواقع جزء من الساعة الكونية، تماماً مثل أية ساعة صنعها الإنسان، أصبحنا نعرف أن الزمن الفيزيائى هو أمر نسبى لأنه يعتمد على أشياء تحدث وتحيط بنا».

* * *

مهما يكن من شىء فإن الزمن يمضى. . وتمضى معه أعمارنا.

ومن هنا من لم يفكر فيما مضى به من أحداث العمر. . فى الطفولة والصبا والشباب. . وأصدقاء العمر. . وما تركته الأيام على ذاكرته من أمال وآلام، وما تعرض له فى حياته من ساعات الشدة والحزن والألم، وساعات الفرح والسعادة والهناء. . وكل ذلك مضى. . وأصبح مجرد ذكريات!!

وهكذا يمضى بنا العمر. . فإذا الذى مضى مضى ولايمكن استرجاعه. . وأن مابقى من أيام العمر فى علم علام الغيوب.

ولنرجع إلى الوراء. . قبيل رحيل أعظم رسل الله عليه الصلاة والسلام إلى أكرم جوار. . لقد خرج مع مولاه (أبومويهبة). . فى ليلة حارة من ليالى الصيف إلى البقيع حيث استغفر لأموات المسلمين الراقدين تحت ثرى البقيع. . وقال لأبى مويهبة. .

«إنى قد أمرت أن استغفر لأهل البقيع فانطلق معى».

وعند المقابر قال عليه الصلاة والسلام:

«السلام عليكم يا أهل المقابر. . ليهنىء لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه. أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها. . الآخرة شر من الأولى!».

والتفت إلى مولاه قائلاً له بعد أن استغفر لأهل القبور «يا أبا مويهبة. . إنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة».

وأحس أبومويهبة أن الرسول ينعى نفسه، وأنه قد اقترب الرحيل عن الدنيا. فقال لأعظم رسل السماء.

- بأبى أنت وأمى فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، والجنة.

ورد الرسول عليه الصلاة والسلام:

- لا والله يا أبا مويهبة. . لقد اخترت لقاء ربى والجنة وبعدها. .
وفى نفس الليلة عندما عاد إلى بيته مرض عليه الصلاة والسلام.

وقد خرج الرسول الكريم إلى الناس أثناء مرضه يحدثهم عن اقتراب أجله، وقال فيما قال:

« . . بلغنى أنكم تخافون موت نبيكم. هل خلد نبى قبلى فيمن بعث إليهم فأخلد فيكم؟ . . ألا وإنى لاحق بربى، وأنكم لاحقون به».

وقد شعر المسلمون فى أعماقهم بالحزن والخوف على نبيهم العظيم. . بل أن عمه العباس قص عليه رؤيا بأنه رأى القمر قد رفع من الأرض إلى السماء، ويفسر الرسول له ذلك بقوله:

- هو ابن أخيك.

تقترب منه ابنته فاطمة الزهراء. . فإذا هى تبكى، وتضحك بعدها.

لقد أبكاها ماسمعته من الرسول الكريم.

«إن جبريل كان يعارضنى بالقرآن كل سنة مرة وأنه عارضنى هذا العام مرتين . . وما أراه إلا قد حضر أجلى».

أما الذى أضحكها . . هو ماقاله لها والدها العظيم من أنها أول أهل بيته لحاقاً به.

وانتقل أعظم رسل السماء إلى رحاب ربه الكريم. . وكانت آخر كلماته:

- «بل الرفيق الأعلى والجنة».

حتى أن السيدة عائشة رضى الله عنها عندما سمعته فى المشهد الأخير من حياته يقول هذه الكلمات قالت:

«خيرت فاخترت والذى بعثك بالحق».

وهاهو خليفته (أبوبكر الصديق).. عندما جاءه الموت، ورأت أم المؤمنين عائشة والدها وقد أوشك على الرحيل، فتمثلت بهذا البيت:

لعمرك مايغنى الثراء عن الفتى

إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

وسمعها أبوها فقال لها.. ليس كذلك.. ولكن قولى:

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩].

وأما عمر بن الخطاب، عندما طعنه أبو لؤلؤة المجوسى، فقد حمد الله على أن قاتله لم يسجد لله سجدة، وأوصى أن يختار المسلمون خليفة من بعده من بين ستة رشحهم للخلافة على وعثمان والزبير ابن العوام، وطلحة، وسعد بن أبى وقاص، وعبد الرحمن بن عوف.

وأن يكون من بينهم عبد الله بن عمر كشاهد وليس له من الأمر شئ.. وكان منتهى أمله فى آخر ساعات عمره أن يدفن بجوار حبيبه

المصطفى عليه الصلاة والسلام، وطلب أن يستأذنوا فى ذلك أم المؤمنين عائشة.. وعندما علم أنها أذنت بذلك قال الحمد لله.. ماكان شيء أهم إليّ من ذلك.

وتروى الروايات التاريخية أنه عندما حوصر عثمان رضى الله عنه، ومنع عنه الثوار الطعام والماء، أنه شاهد الرسول عليه الصلاة والسلام فى منامه يسقيه، فأدلى إليه بدلو فيه ماء فشرب منه عثمان، أو على حد تعبيره فشربت حتى رويت، حتى أنى لأجد برودة بين ثديى وبين كتفى.. وقد استشهد ثالث الخلفاء فى نفس اليوم، وكانت آخر كلماته عندما ضرب بالسيوف:

«لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين، اللهم إنى استعديك عليهم، واستعينك على جميع أمورى، وأسألك الصبر على ما ابتليتنى».

وعندما اغتاله عبد الرحمن بن ملجم وكان أحد خوارج الإمام على رضى الله عنه، أوصى الإمام وصيته لأولاده، ثم أخذ يردد: لا إله إلا الله إلى أن فارق الدنيا.

وفى كتاب الإحياء للإمام الغزالى الكلمات الأخيرة لهؤلاء الذين حضرهم الموت من الخلفاء والصالحين.. ومما رواه أن معاوية ابن أبى سفيان لما حضرته الوفاة قال: اقعدونى، فأُقعد وجلس يسبح الله تعالى ويذكره، ثم بكى وقال:

- تذكر ربك يا معاوية بعد الهرم والانحطاط، ألا كان هذا وغصن الشباب نضر ريان، وبكى حتى علا بكاؤه وقال:

- يارب ارحم الشيخ العاصى ذا القلب القاسى، اللهم أقل العثرة، واغفر الذلة، وعد بحلمك على من لم يرج غيرك، ولم يثق بأحد سواك.

وقيل لعبد الملك بن مروان فى مرضه الذى مات فيه:

- كيف تجدك يا أمير المؤمنين؟

قال: تجدنى كما قال: الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ [الأنعام: ٩٤].

ومات.

ولما اقترب وقت موت عمر بن عبد العزيز قال:

اجلسونى، فأجلسوه فقال: أنا الذى أمرتنى فقصرت ونهيتنى فعصيت؟ ثلاث مرات ولكن لا إله إلا الله ثم رفع رأسه فأحدَّ النظر، فقيل له فى ذلك فقال:

- إنى لأرى حضرة ماهم بأنس ولا جن ثم قبض رحمه الله.

وحكى عن هارون الرشيد أنه انتقى أكفانه بيده عند الموت، وكان ينظر إليها ويقول:

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩].

- يامن لايزول ملكه ارحم من قد زال ملكه.

وكان المعتصم يقول عند موته:

- لو علمت أن عمرى هكذا قصير مافعلت.

وكان المنتصر يضطرب على نفسه عند موته، فقيل له:

- لابأس عليك يا أمير المؤمنين

فقال: ليس إلا هذا لقد ذهبت الدنيا وأقبلت الآخرة.

وقال عمرو بن العاص عند الوفاة وقد نظر إلى صناديق لبنيه:

- من يأخذها بما فيها ليته كان يعره.

وقال الحجاج عند موته:

اللهم اغفر لى فإن الناس يقولون إنك لاتغفر لى.

فكان عمر بن عبدالعزيز تعجبه هذه الكلمة منه، ويغبطه عليها.

ولما حكى ذلك للحسن قال: أقالها، قيل نعم. قال عسى!

ودخل المزنى على الشافعى - رحمة الله عليهما فى مرضه الذى توفى فيه فقال له:

- كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟

فقال:

أصبحت من الدنيا راحلاً، وللإخوان مفارقاً، ولسوء عملى

ملاقيا، وبكأس المنية شاربا، وعلى الله تعالى وارداً، ولا أدرى أروحى تصير إلى الجنة فأُهنيها، أم إلى النار فأُعزيها ثم أنشأ يقول:

ولما قسى قلبى وضاقت مذاهبى

جعلت رجائى نحو عفوك سلما

تعاظمنــى ذنبـى فلمـا قرنتـــه

بعـفـوك ربى كان عفـوك أعظما

فمازلت ذا عفو عن الذنب لم تزل

تجــود وتعفـــو فـيـه وتكـرمـا

ولـولاك لـم يغـوى بإبليـس عابـد

فكيف وقـد أغـوى صفيك آدمـا

و.. ما أكثر الكلمات التى تلخص أن الحياة لاقيمة لها، تلك الكلمات التى قالها أناس كانت لهم أدوارهم فى الحياة، وكانوا على أعلى سلم السلطة أو الجاه أو النفوذ أو العلم... وقد وجدوا أن الحصيلة هى أن الحياة تمر بسرعة مذهلة.. تنقضى أيامها.. وتمر لياليها.. وينتهى ما فيها من متع وأحداث وآمال وآلام.. ولايبقى إلا ما قدم الإنسان من صالح الأعمال.

وها نحن نبحر سويا فى رحلة تأملية حول الحياة والأحياء،

وماوراء هذه الحياة، من خلال قراءات متعددة فى العلم والفلسفة والفكر والدين، ومن خلال خبرات علماء عاشوا للعلم وبالعلم وأدباء قضوا حياتهم فى التعبير عن الحياة، وفلاسفة أجهدهم البحث فى الحياة وماوراء الحياة، وكان الشاطىء الآمن عند نهاية الرحلة هو أن يلوذ الإنسان بالإيمان. . فالإيمان هو الذى يهدى الإنسان طريق الرشاد.

والإيمان هو الذى يجعل الإنسان يعيش لهدف، ويموت وهو مطمئن البال، بأنه فى رحاب عدالة الله، ورحمته التى وسعت كل شىء. .

وعلى شاطىء الإيمان يطمئن القلب، وتسود النفس السكينة مهما كانت أمواج المحيط من أمامه هادئة أو متقلبة. . لأن النفس بيد خالقها ومبدعها. !

والإنسان على ضعفه هو سيد هذا الوجود. . ولكن عليه أن يتناغم معه، ليمكنه أن يتعايش فيه. . ولا مظلة له. . ولا أمن له من عوادى الأيام. . وتقلبات الحياة إلا أن يلوذ بحصن الإيمان. . يومها يرى كل شىء جميلاً مهما كانت الظروف. . ومهما كانت أشواك الطريق.

مأمون غريب


(١)
على شواطئ
الفكر والفلسفة

سوف نبحر سويا فى رحلة بالغة الثراء فى ملكوت الله . . هذا الملكوت اللانهائى، الذى يبرز عظمة الخالق العظيم واهب الحياة، ونبدأ رحلتنا من خلال الرؤى المختلفة فى الفكر والفلسفة، ونعرج منها إلى العلم، لنصل إلى المرفأ الآمن فى رحاب الدين، حيث تتجلى الرؤية . . وتتضح الحقيقة، ويتبين مغزى الحياة ومعنى الوجود.

عندما أعود بذاكرتى إلى الوراء . . إلى أيام الطفولة والشباب وأفكر اليوم بعد أن تجاوزت مرحلة الشباب عما أتذكره من شريط العمر . . فإننى أجد مساحة زمنية من العمر قد نسيتها . . اختفت فى زوايا النسيان، ولم أعد أتذكر منها شيئا وإن كانت تركت بصماتها على صفحات أيامى . . !

وتبرز أسئلة كثيرة . . حائرة ومحيرة عن رحلة العمر ما الذى استفاده منها الإنسان؟ . . وهو يرى طفولة قد طوت أحداثها الأيام.

وشباب كان للإنسان فيه تطلعات وسواء تحققت هذه الأحلام والتطلعات أم لم تتحقق، فقد أصبحت ماضيا . . والماضى قد مضى، ومستقبل الأيام سوف يتحول هو الآخر إلى ماض، تحت وطأة سرعة مرور الزمان . . ولايبقى إلا الصدى . . وتعود من جديد علامات الاستفهام الحائرة والمحيرة.

ماذا استفدت من هذه الرحلة . . ؟

ما حساب المكسب والخسارة؟

وما هو العائد من هذا العمر الذى مضى معظمه، وما بقى فى علم الغيب؟

وربما يشتط بالإنسان الخيال فيتذكر أنه كان يوما ما جنينا فى رحم أمه قبل أن يقذف به إلى أمواج الحياة.

ما الذى يتذكره الإنسان فى هذه المرحلة؟

والإجابة.. لاشىء على الإطلاق..!

فإذا ما تمادى الخيال بالإنسان، وتساءل أين كان قبل ذلك؟ فى تلك المرحلة التى قال عنها أفلاطون.. أن الإنسان قبل أن يوجد كان فى عالم (المثل).. عالم تصور فيه الفيلسوف اليونانى أن كل إنسان عاش هذا العالم، وعندما يتذكر ما مر به من أحداث فهذا هو العلم، وعندما لايتذكر شيئا فهو الجهل.. فالعلم تذكر والجهل نسيان!

* * *

ولا أعرف كيف وصل أفلاطون إلى هذا التخيل، وهو الذى نشأ فى بيئة لم تصلها رسالة سماوية، ولاهتف على أرض بلاده نبى برسالة السماء.

هل هو الذكاء الإنسانى عندما يطلق لخياله العنان وهو يتساءل عن الإنسان ومغزى وجوده؟

ولماذا جاء وكيف جاء إلى الوجود؟! أم مجرد توهم أسطورى كتلك الأساطير التى امتلأت بها بلاد الإغريق.. فهى بلاد العقل

والأساطير، البحث عن الحقيقة والاستغراق فى الخرافة فى نفس الوقت!

ولكن الذى يثير الدهشة فيما ذهب إليه أفلاطون، أن الإسلام يورد حقيقة أن الإنسان وجد فى عالم (الذر).. وأنه فى هذا العالم قد شهد بوحدانية الله سبحانه وتعالى.. أى أن الإنسان كان له وجود أزلى فى عالم (الذر) هذا.. ولكن كيف كان هذا الوجود.. وهل يتذكره أحد؟!

وبالتأكيد إن هذا الوجود حقيقة لأن القرآن ذكره، ولكن كيف؟.. لا أحد يتذكر هذا.. ولايعرف هذا كما لم تتذكر لحظات وجودك كجنين فى بطن أمك.. أو لحظات الطفولة المبكرة؟!

يقول تعالى فى سورة الأعراف:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣)﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣].

فكل البشر من آدم.

ومن ظهر آدم خرج الأنبياء والأحفاد وأحفاد الأحفاد إلى أن عُمِّر الكون بالإنسان، وأصبح له وجود فى مختلف القارات.. ولكن الأصل هو آدم.. وكل إنسان حياته ممتدة إلى آدم.. ومن ظهر آدم حيث تجمعت بداية الإنسانية أشهدنا الله على أنفسنا..

ويفسر ذلك حديث الرسول عليه الصلاة والسلام:

«إن الله مسح على ظهر آدم، وأخرج منه الذرية المطمورة فيه، والتى ستأتى إلى الحياة حتى قيام الساعة. وقال لهم ألست بربكم؟ قالوا نعم أنت ربنا سبحانك».

* * *

وجودى إذن حقيقة. .

وحقيقة هذا الوجود يتجلى فى أننى أسمع وأرى وأدرك وأفكر، وأستفيد من تجارب السنين. . وأرسم مستقبلى على ضوء ما مر بى من تجارب العمر وكل هذا يدخل فى دائرة المعرفة. . ولكن قد أريد شيئا ولا يتحقق هذا الشىء. . وأتخذ لنفسى طريقا ولكننى أجد نفسى أسلك طريقاً آخر. . وهنا نقول إنها الأقدار. . والأقدار غيب. . والغيب من صميم الإيمان. . ومن هنا نجد أن على الإنسان أن يعمل بالأسباب حتى يتواءم مع الحياة. . فإذا خرجت الأمور من يديه فعليه أن يؤمن بأن هذا هو القدر. . ومن صميم الإيمان أيضا الإيمان بالقدر خيره وشره كما يقول أعظم رسل السماء عليه الصلاة والسلام.

وكثيرا ما كنت أتأمل فى الحياة والأحياء. . عن هذا الوجود. .

كيف جاء الإنسان إلى الحياة؟

ولماذا جاء إليها. . ؟

وما رسالته فى هذه الحياة؟

أسئلة كثيرة.. حائرة ومحيرة.. أتعبت المفكرين والفلاسفة وفى نهاية تفكيرهم لم يجدوا لعلامات الاستفهام هذه إلا المزيد من علامات الاستفهام.

ولا جواب..!

* * *

وعندما تلتمس المعرفة من العلم.. والعلم لايؤمن إلا بالتجربة والواقع.. إنه يفسر الأمور ولكن لايعرف الغايات، فنجد أن العلم رغم تقدمه المذهل فى مختلف المجالات.. مازال عاجزا عن فهم اللغز الإنسانى.. مازال عاجزا عن تفسير السلوك الإنسانى.. ودوافعه ونوازعه.. عشرات من المدارس النفسية كل مدرسة لها تفسير خاص عن نفسية الإنسان وما الذى يحركه إلى الخير أو الشر، لماذا يعيش سعيدا، أو تعيسا؟

لماذا يبتهج بالحياة ولماذا يصيبه الاكتئاب؟ ولماذا تتغير كيمياء الجسم عندما ينتاب الإنسان حزن أو ألم؟.. تبرز علامات الاستفهام الكثيرة.. وتظل الحقيقة عزيزة المنال..

.. والإنسان داس بأقدامه على أرض القمر، وتجاوزه فى رحلات الفضاء إلى المريخ.. ولكن الإنسان مازال على أبواب الفضاء.. أما الفضاء نفسه الذى يضم الكواكب والنجوم والمجرات، والذى يمتلىء بملايين الملايين من هذه المجرات.. حيث يتسع الكون اتساعا مذهلا.. ويفصل بين المجرات ملايين السنين الضوئية..

أمام هذا الكون الفسيح يجد الإنسان نفسه لم يتخط سوى عتبته ومازال لغزا. . ومازالت عشرات النظريات فى الفلك تصبو إلى الحقيقة. . ولكن الحقيقة نفسها شيء عسير المنال. . !

والإنسان نفسه. . ليس على مستوى مشكلاته النفسية فقط ولكن على مستوى حياته العضوية مازال لغزا، ومازال هناك من الأمراض ماتزال لغزا محيرا يقف الطب أمامها عاجزا متخاذلا . .

وما يقال عن عالم الفضاء وعالم الطب يمكن أن يقال فى مختلف العلوم. .

* * *

الإنسان تقدم . . نعم . .

الإنسان وصل فى غضون العقود الثلاثة الماضية ما يساوى تقدمه عبر كل العصور. . هذه حقيقة!

ولكن الحقيقة الأكثر تأكيداً. . أن الإنسان لم يعرف إلا أقل القليل. . وأن ألغاز الحياة كثيرة. . وأن الحقيقة الحتمية هى أننى كما أعيش سوف أموت. . طال العمر أم قصر. . وأن الحياة تمضى بسرعة. . وأن الإنسان فيها كما قال عليه الصلاة والسلام: «كراكب استظل بظل شجرة ثم تركها». . !

ولكن تركها إلى أين؟

* * *

هذا هو السؤال الذى حفز الناس على معرفة ما وراء الموت. . وما وراء هذه الحقيقة المؤكدة. . الملحدون وجدوا أن هذه هى حياتهم الدنيا وما يهلكهم إلا الدهر. . !

والمؤمنون يرون أن الحياة ما هى إلا جسر للعالم الآخر. . عالم الخلود. . وأن على الإنسان ليعيش حياة هانئة بعد أن يعبر جسر الحياة. . أن يعمل بما أنزل الله. . السير على دستور الله. . فعل ما أحله الله، والبعد عما حرمه الله. . ساعتها يصبح عالم الخلود. . هو عالم السعادة. . والإقامة الخالدة. . لا أمراض تنهش جسد الإنسان وتنهك قواه، ولا شيخوخة تهز كيانه وتقصر ماء الحياة فيه، ولا أمراض نفسية تخلخل معالم شخصيته. . ولكن نعيم مقيم. . وسعادة دائمة.

أما كيفية هذا النعيم وتصوره، فهو غيب لا يعلمه إلا الله تعالى. . غيب يجب أن نؤمن به. . لأن الله سبحانه وتعالى أورده فى كتابه وعلى لسان رسله وأنبيائه. .و. . الإيمان بالغيب من صميم الإيمان. والمؤمنون هم الذين آمنوا بما جاء به وحى الله سبحانه وتعالى على محمد عليه الصلاة والسلام وما سبقه من الأنبياء والمرسلين، وبما جاءتهم به الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل والزبور، وهم الذين يؤمنون بالملائكة واليوم الآخر.

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

* * *

والملحدون لايؤمنون بالله ولكنهم يردون كل شىء إلى الطبيعة، وكأن الطبيعة لها عقل يدرك، ويدبر، وينسون أن الحجر لايمكن أن يتطور إلى شىء.. ولايفكر فى شىء.. فالمادة لاتتطور وبالتالى لاتفكر.. ولاتملك لنفسها نفعا ولاضررا.. فكيف تكون الحياة بما فيها من حيوية وحركة وطاقة وقدرة على التطور والتشكيل، كيف تتطور بلا فكر خلاق أو غير خلاق..

إن الملحدين بأفكارهم هذه سطحيون إلى أقصى حدود السطحية.. أغبياء إلى أقصى حدود الغباء.. فكيف تفكر هذه الطبيعة.. كيف تسير بهذا الاتساق العجيب؟

كيف لا تصطدم النجوم والكواكب؟

يقولون بفعل الجاذبية..!

وهنا نتساءل.. كيف أخذت هذه الكواكب والمجرات مسارها بحيث يسير الأصغر فى فلك الأكبر؟!

أليس هذا دليلا على أن هناك قوة عظمى وراء هذه الطبيعة وضعت لها قوانينها. حتى يصبح ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣].

العقل يقول ذلك.

والمنطق يقول ذلك.

والعلم يقول ذلك.

والجهل هو الذى يأبى إعمال العقل والمنطق والعلم.. لأن كل شيء فى الحياة يسير على قانون.. قانون كلى يحكم كل الكائنات الحية.. وغير الحية.

* * *

ومن هنا يرى المؤمنون قدرة الله تتجلى فى كل شيء.. فى الحياة وتألقها.

فى جريان المياه فى الأنهار وحتى تأخذ طريقها إلى البحار والمحيطات.

فى جمال الزهرة.. وتألق النجوم فى كبد السماء.. وفى جمال الشروق.. وجلال الغروب.. فى ظلام الليل حين يسدل أستاره على الكون، وفى سطوع القمر بأضوائه الشاحبة الساحرة التى تخفف من رهبة الظلام.

فى الجبال الشم.. وفى الوديان الممتدة، وفى الصحراوات برمالها الصفراء وجبالها.. ومنابع الماء وسط هذه الصحراء الجرداء.

الذين يعيشون فى الوديان.. والذين يعيشون فى الجبال، والذين يعيشون فى الصحراء حول نبع من المياه وسط وحشتها العجيبة.. كل هؤلاء يعيشون.. ويتمتعون بحياتهم.. وينشد الشعراء فى بيئاتهم تلك أعذب الأشعار.. ويشعرون بالانتماء.. مثلهم مثل سكان المدن الآهلة بالسكان وناطحات السحاب ودور اللهو والتسلية.. ومثلهم أيضا سكان القرى.. الكل يعيش حياته بما فيها من أمل وألم، سعادة وشقاء.. ولكن كل هذه البيئات المختلفة.. مؤهلة لاحتضان الإنسان ليعيش فيها، ويتكيف بها.. ويرى فى المكان الذى ولد فيه.. وشاهد مراتع صباه، وتطلعات شبابه.. وقد يضم رفاته عندما يأتيه الأجل المحتوم.. الكل يتواءم مع وطنه.. يكافح سنوات عمره فى سبيل لقمة العيش، وفى سبيل البحث عن مستقبل أكثر أمانا وإنتاجا ولكن فى النهاية.. لابد من الرحيل.

بل أننا فى عصرنا الحديث.. وقد أصبح العالم كما يقولون قرية اليكترونية صغيرة.. بمعنى أن الإنسان فى أى مكان فى هذا العالم يعرف ما يدور فيه من أحداث ساعة وقوعها عن طريق وسائل الاتصال الحديثة.. عصر التليفزيون والأقمار الصناعية والانترنيت وثورة المعلومات وثورة الكمبيوتر.. ولكن مهما تقدم الإنسان فى

مجال العلم والحضارة. . فلن يمنع المرض. . ولن يمنع ما يتسرب إلى نفسه من أمراض نفسية وعلل عضوية. . مما يحول بينه وبين السعادة التى يرنو إليها. . ثم يكون الموت فى النهاية قدرا محتوما. .

* * *

ولأن الحياة مشروع إلهى شاء الله أن نحياها، فلابد لكى تكون لهذه الحياة معنى أن نستمد مقومات حياتنا من جلال الله. . باتباع ما أمرنا به على لسان أنبيائه ورسله، ونبتعد عما نهانا عنه. . ومن هنا يصبح للحياة معنى. . وتكون جديرة بأن نحياها. . وأن نعمل فيها كما يقول الإمام على رضى الله عنه «كأننا نعيش أبداً ونعمل لآخرتنا كأننا سنموت غدا». .

وهذه الحكمة التى أوجز فيها الإمام أهمية أن نحيا لدنيانا ونعمل من أجلها ليكون لوجودنا نفسه معنى، وأن نعمل لآخرتنا حتى نسعد فى أخرانا. . لم يفطن إليها الذين يفكرون من خلال فكر فلسفى غبى. . يرى أن الدنيا هى التى نعرفها. . وأن علينا أن نسعى إلى ما فيها من ملذات. . كما نرى فى فلسفة (أبيقور) الذى يتصور أن الحياة مهزلة ينبغى أن نغتنم ما فيها من لذة، ولكنه يفطن أن الموت هو نهاية كل حى، فلا يرى فى الموت إلا المنقذ مما فى الحياة من مهازل.

ويقول: إن الموت هو الطبيب الرفيق الذى يشفينا من أشد الأمراض فتكا وهو مرض الحياة!!

ومادام الموت هو الحقيقة المؤكدة ففى رأيه عدم الخوف أو الانزعاج منه.. لأنه يرى أن الإنسان كان عدما قبل أن يأتى إلى الحياة، فإذا ما جاء إلى هذه الدنيا فالحياة فى رأيه رقصة فاتنة بين لحظتين خالدتين من النوم اللذيذ!!

وهذا كلام متهافت لأن الإنسان إذا كان يغط فى العدم فكيف يجد لذة فى هذا العدم!

ولو سرنا وراء هذه الفلسفات المتشائمة ما تقدمت الإنسانية.. ولا سعد الإنسان بحياته.. فالذين يرون عبثية الحياة لايحسون بما فى الحياة من مباهج.

* * *

ولقد قرأت الفلسفات المختلفة التى تحاول أن تفسر الوجود.. وتفسر دور الإنسان فى هذا الوجود.. وتحدثت بعض هذه الفلسفات عن العذاب الإنسانى، وتحدث بعضها الآخر أن الجحيم هم الآخرون.. وكأن الإنسان يمكنه أن يعيش فى جزيرة معزولة عن الآخرين.. ونسيت مثل هذه الفلسفات أن الإنسان لايشعر بوجوده إلا مع الآخرين.. وبالآخرين.. وأن ما يلاقيه الإنسان فى المجتمع الذى يعيش فيه من آلام ربما يرجع إلى عدم القدرة على التكيف مع الآخرين.. أو الفقر.. أو الجهل.. أو المرض.. أو أى سبب يجعل هناك مسافة بينه وبين الآخرين.. ولكن الحل لايأتى بأن (الآخر) هو

الجحيم.. الحل يأتى مع القدرة على التكيف مع هذا الآخر.. وإيجاد النظم التى تكفل التكافل الاجتماعى للجميع.. وتكفل من القواعد ما يجعل الجميع فى الوطن الواحد وكأنهم يعيشون فى مركب واحد.. يتجه إلى هدف واحد.. نحو مصالح مشتركة.. وهذا ما لا نجده فى أى فلسفة من الفلسفات.. فالفلسفات تضرب أخماسا فى أسداس، ولكنها لاترسم طريقا، ولاتوضح هدفا.. إنها مجرد رياضة عقلية لاتفيد الجاهل، ولا تنفع الذكى كما قال ابن تيمية عن منطق أرسطو!!

* * *

وإذا سرنا وراء هذه الفلسفات التى تتسم بالتشاؤم ولاتفتح طريقا للأمل.. بأننا نتيقن من تهافت هذه الفلسفات التى لاتصلح منهجا للإنسان فى حياته.

فشوبنهاور مثلا يرى أن الإنسان لو عرضت عليه الحياة قبل أن يحياها لرفضها لأنه ليس فيها ما يدعو إلى السعادة، وحتى هؤلاء الذين يحسدون غيرهم فى الحياة على ما هم فيه من السعادة واهمون لأنه ليس هناك إنسان سعيد! وبالتالى فإن هذا العالم فى نظره ما كان ينبغى أن يوجد!! فعدم هذا العالم أكثر جدوى من وجوده!

ويقول شوبنهار:

- كل شىء فى الحياة يوضح أن السعادة الأرضية مصيرها إما إلى الفساد، وإما إلى أن تكون مجرد وهم وخداع.

ونرى أديبا مرموقا كتولستوى يرى أن الانتحار نوع من الشجاعة!!

ونرى فيلسوفا آخر.. وهو نيتشة يلخص حياته بقوله: إحراق واحتراق.. تلك كانت حياتى!

ونسى أنه هو الذى أحرق نفسه بنفسه بفلسفته التى أسماها فلسفة القوة، وفيلسوف القوة الذى كان يرى أنه لاينبغى الرأفة بالضعفاء والمساكين وتطهير المجتمع منهم، وأنه ينبغى أن تسود فلسفة السادة لا فلسفة العبيد.

فلسفة مبنية على القهر.. فليس للضعفاء مكان فى مملكته.. فالطيور الجارحة فى رأيه لاتخجل من اعتدائها على الخراف المستضعفة!

وتمادى الرجل فى فلسفته الإلحادية فأنكر وجود الله ووجود الجنة والنار، حتى أن صديقه الفنان الشهير فاجنر أطلق عليه المجنون!

وكان يقول أنه نبى دين جديد.. دين اللامسيحية؟

وأخذ يبشر بالإنسان الأعلى (السوبرمان).. وأن تحل هذه الفكرة محل (الله)!

يقول هذا الفيلسوف المريض جسدياً، والذى ينادى بفلسفة القوة:

- (إن الإنسان الأعلى هو الإله الجديد، أن علينا أن نضع الله.. ولكن حذار من أن نصنع الله على صورتنا ومثالنا، إلها بشريا، إلها غاية فى الإنسانية، فلنضع أنفسنا نحن على صورة الله، ولتكن هذه الصورة فوق إنسانية) إلى آخر تخاريف هذا الفيلسوف الذى انتهت حياته بالجنون.. فقد مات وهو مجنون بالفعل!

- وهل هناك جنون أكثر من قوله:

«إلى أين مضى الله؟

سأقول لكم أين مضى.. لقد قتلناه.. أنتم وأنا.. أجل نحن الذين قتلناه.. نحن جميعا قاتلوه.. ألا تشمون رائحة العفن الإلهى.. إن الآلهة أيضا تتعفن؟.. لقد مات الله وسيظل الله ميتا».

فيلسوف.. فقد عقله.. ولم ينبهر به أحد سوى الصهيونية العالمية التى روجت لفكره حتى تستطيع هدم الأديان.

فيلسوف لاينشر نور العقل.. ولانور اليقين بل يصور الحياة غابة.. البقاء فيها للأقوى.. غابة مليئة بالوحوش المفترسة.. لامكان فيها للرحمة ولا التكافل الاجتماعى، ولا الإخاء الإنسانى، ولا حتى الحب!

ونيتشة هذا الفيلسوف الذى يصفق لفلسفته السفهاء، لم يكن على وفاق مع حياته قط، ولم يستطع أن يكوّن صداقة حقيقية بينه

وبين الآخرين، وحتى فشل فى حبه مع المرأة، ولم يستطع أن يكّون أسرة. . بسبب فشله المتكرر فى الحب قال مقولته الشهيرة:

- لاتذهب إلى المرأة إلا والسوط معك!

إنها كلمة تنم عن فشله كإنسان سوى، وتنم عن عقد نفسية دفينة فى نفسه، فكيف يستساغ لإنسان أن يرى فى فلسفته مصباح ضوء فى ليالى الحياة. .

* * *

الفلسفة إذن لم تستطع أن ترسم طريق الإنسان فى الحياة. . وعلامات الاستفهام الغامضة فيها أكثر من الإجابات الواضحة المعالم والقسمات، ويظل الإنسان خليفة الله فى الأرض لغزا. .

ويورد لنا فؤاد كامل فى كتابه (الشخصية بين الحرية والعبودية) رأى الفيلسوف الروسى الشهير (نيقولا برديائيف) فى الشخصية. . هذا الفيلسوف الوجودى المتصوف والذى يجعل من الشخصية الإنسانية محورا لفلسفته، ويضفى عليها كما يقول المؤلف - ما يذكرنا بجوهر النظرة الإسلامية إلى الإنسان. . أعنى بوصفه خليفة الله على الأرض. . وقد عرض (برديائيف) رأيه هذا فى الشخصية فى كتابه القيم (العبودية والحرية) وملخص هذا الرأى:

الإنسان فى هذا العالم لغز، بل لعله اللغز الأكبر وليس الإنسان لغزا لأنه حيوان اجتماعى، أو بمعنى آخر لأنه جزء من الطبيعة

وعضو فى مجتمع، بل هو لغز لأنه شخص، ولأنه يمتلك شخصية، فالعالم كله ليس شيئا إذا قورن بالشخصية الإنسانية، ويشخص الإنسان الفريد، ومصيره المتفرد، الإنسان يعيش فى كبد، ويتحرق إلى معرفة نفسه.. من أين جاء وإلى أين هو ذاهب؟

ويستطيع الإنسان أن يعرف نفسه من أعلى أو من أسفل، من نوره الخاص.. من المبدأ الإلهى الكامن فى طبيعته، أو من ظلامه الخاص، من مبدأ اللاشعور الأولى الشيطانى المستقر فى أعماقه، وهو يستطيع أن يفعل ذلك لأنه كائن مزدوج متناقض.. فهو شبيه الإله، وشبيه الحيوان، يسمو إلى الذُّرا وينحط إلى الحضيض، حر ومستعبد، قادر على أسمى أنواع الحب والتضحيات، ولكنه خليق فى الوقت نفسه بارتكاب أبشع ضروب القسوة والعنف والأنانية.

الإنسان إذن لغز.

عاجز عن إدراك ذاته.. وإدراك ما حوله.. وإنه يتوسل بالفكر أن يعرف لغز هذه الذات وإنه يتوسل بالعلم أن يفك طلاسم الوجود وقد منحه الله العقل رغم محدوديته للوصول إلى هذه المعرفة.. ولكنه بالعقل المحدود، والعلم المحدود يتقدم شيئا فشيئا.. وجيلا بعد جيل لإدراك أمور، وتخفى عنه أمور..

فقد حاول أن يفسر الوجود وتغلب على التفسير وهم الخرافات والأساطير..

وتاريخ الإنسان ملىء بالخرافات متمثلة فى العبادات التى مارسها من عبادة الكواكب والنجوم والشياطين وتدنى حتى عبد الأصنام والأوثان.. وتصور الإنسان الإغريقى أن على جبل الأوليمب آلهة لها تواريخ البشر، وشرور البشر، وأنها تتصارع وتحقد على بعضها، وتحقد أيضا على الإنسان وتغار منه..!!

وهذا لايعنى رغم قصور العقل عن الوصول إلى الحقيقة التى توصل إليها الإنسان عن طريق الوحى.. لايعنى أن الفلسفة كانت حجر عثرة فى سبيل التقدم الإنسانى، بل أن الفلسفة كان لها دورها فى اختراق حاجز الخرافات والأساطير، وجعل العقل الإنسانى أمام مسئولياته، فلم يتورع هذا العقل أن يناقش بجسارة مختلف القضايا وأن يضع فيلسوف كأرسطو المنطق الذى تعرف به الصواب من الخطأ ولكن الفلسفة فى كل عصر تجىء انعكاسا لما فى هذا العصر وما يسوده من ثقافة وعقائد وحضارة.. ولعل الدكتور زكى نجيب محمود عندما كتب كتابه (الشرق الفنان) والذى تحدث فيه عن جوهر الثقافة العربية بمقارنتها بكبرى الثقافات التى شهدها التاريخ، كان فى تصوره للأمر كما يقول فى كتابه (تحديث الثقافة العربية) هو أن التاريخ قد شهد ثقافتين عظيمتين، إلى جانب الرفعة العربية التى تميزت دونهما بخصائص انفردت بها، أما تلك الثقافات فكانت أحداهما هى ثقافة الشرق الأقصى من جهة الشرق، وكانت الأخرى

هى ثقافة اليونان القديمة من جهة الغرب، وهذه هى نفسها التى أصبحت فيما بعد بمنزلة الجذور التى انبعث منها ثقافة الغرب، فى أوربا أولا، ثم فى أمريكا الشمالية بعد ذلك.

ويقول الدكتور زكى نجيب محمود:

وكان الأساس الذى اتخذته لهذا التقسيم، هو وسيلة الإدراك الأساسية فى كل من الثقافات الثلاث الشرق الأقصوية، واليونانية والعربية، كما تجلت تلك الوسيلة الإدراكية فى الناتج الثقافى المتوارث فى كل منها، فواضح أن المأثور الثقافى فى الشرق الأقصى، كان أهم ما فيه كتب الديانات فى ذلك الجزء الفسيح من العالم وهى كتب نقرأها فنقرأ ما يشبه الأدب شعرا ونثرا، فهو كلام ينبع من صميم القلب، وينضح من خبرات إنسانية دافئة وأصيلة، وموجه مباشرة نحو الإنسان فى حياته الأخلاقية وكيف ينبغى له أن يقطع رحلة الحياة فى دنياه، وإذن فقد كان الوسيلة الإدراكية الأولى عن أصحاب تلك الثقافة هى نفسها وسيلة الشاعر والأديب والصوفى والفنان، وواضح كذلك أن ثقافة اليونان القديمة، إذا أخذنا جانب الفكر الفلسفى والعلمى من تراثها - كانت مؤسسة على منطق العقل، كما يتجلى ذلك المنطق العقلى فى عمليات استدلالية، توضح فيها فروض لتستخرج منها نتائجها عن طريق المنهج القياسى، الذى صاغ أرسطو نظريته بكل تفصيلاتها، وهو المنهج

الذى نقله العرب عن اليونان، فيما نقلوه من تراث اليونان القديمة وأصبح ذلك المنطق من أبرز الملامح التى كان يتميز بها المثقف العربى، أيا كان بعد أن تخصص فوق ذلك، وجاءت الثقافة العربية وسطا بين ذنيك الطرفين، لا بالمعنى الذى يجعلها تأخذ قبضة من تلك، وقبضة من هذه لتؤلف بينهما، فإذا هذا الذى هو ألفته هو ثقافتها العربية، بل بالمعنى الذى يجعل لها بادىء ذى بدء وقفتها الخاصة، استخلصتها من موقعها ومن طبيعة أقليمها، فمكنتها تلك الوقعة الخاصة من أن تستخدم وسيلتى الإدراك - السالف ذكرهما - إحداهما عند شعوب الشرق الأقصى، والأخرى عند الإغريق - كما مكنتها من أن تضفر تلك الوسيلتين فى جديلة واحدة، بحيث أصبح كل عربى ذا رؤية يكون بها صوفى الاتجاه آنا، وعقلى الاتجاه آنا آخر، فإذا نظرت إلى الموقف كله فى جملته بنظرة ترسلها من عل، وجدت الشاعر وصاحب النزعة العقلية، قد اجتمعا فى العربى، ووجدت كذلك أن كلا من الاتجاهين، قد امتد وارتفع إلى ذروته فى شامخ بعد شامخ، فهنا المتصوف أو الشاعر العملاق، وهناك الفقيه أو العالم فى مجال من مجالات العلم.

ويرى الدكتور زكى نجيب محمود أنه لولا أن معدة العربى قادرة على هضم هذا الناتج العقلى، لما استطاع العرب وهم فى مجدهم ينقلون عن الهند تصوفها، وعن اليونانيين فلسفتهم

وعلومهم ليمزجوا هذه الحصيلة كلها مضافة إلى ما عندهم من دين وشعر، فإذا كل هذا يتمثل فى كتابات الكُتاب، وفى نقد النقاد، وفى فقه الفقهاء (من حيث منطق القياس) بل وفى شعر الشعراء كذلك وحسبك أن تقف عند رجل واحد كأبى العلاء المعرى، لترى صورة تلك المحصلة الثقافية فى أوجها.

* * *

وواضح أن الدكتور زكى نجيب محمود قد جمع محصلة ما توصل إليه من تأثير الثقافات بعضها ببعض، وسمة كل ثقافة من هذه الثقافات.

ومن خلال دراستى لهذه الفلسفات المختلفة.. سواء وقفت معها أو ضدها، ما كانت لتزدهر فى عالمنا العربى، ما لم يكن الإسلام بشموخه وعظمته وحثه المؤمنين به على قراءة كتاب الكون، ودراسة مختلفة الظواهر المادية التى يراها فى الوجود من حوله، ليدرك من خلالها عظمة الخالق - جل علاه - بالضبط كما يقرأون كتاب الله الذى أنزل على آخر رسله وما فيه من عقيدة وتشريع وعبادات.

* * *


(٢)
على شواطئ
العلم



بعد أن أبحرنا إلى شواطىء الفكر والفلسفة، نواصل رحلتنا إلى آفاق العلم . . هذا الذى يبحث فى المجهول بحثا عن الحقيقة . . ومن خلال هذا العلم سوف نرى حقائق مذهلة حول حقائق هذا الكون . . والتى تشير كل الدلائل إلى عظمة الخالق الأعظم . .

الإنسان دائم البحث عن الحقيقة . .

والحقيقة شىء عزيز المنال . .

نحن نقترب من الحقيقة، أو نصطلح على شىء نقول عنه إنه الحقيقة ولكن كُنْه الحقيقة نفسها أمر صعب . .

فأنت عندما تنظر إلى سمكة فى الماء . . فلن تستطيع أن تحدد مكانها بالضبط . . ولكن تعرفه بالتقريب .

وإذا كانت الفلسفة قد بدأت بالتأمل . . عندما لفت نظر الإنسان حقيقة الموت . . عندما رأى الإنسان مَنْ يموت . . وكيف يفارق الحياة . . فاندهش ومن هذه الدهشة حاول أن يعرف ما هو الموت؟ وما وراء هذا الموت؟ وهل يمكن لهذا الإنسان الذى كان يملأ الدنيا حركة وحياة، أن ينتهى إلى سكون وعدم؟

وبدأ التفكير الإنسانى فى الحياة . . وما وراء الحياة؟ والموت وما وراء الموت؟ .

* * *

ولكن الفلسفة وإن كانت قد فتحت الآفاق أمام الذهن الإنسانى أن يتأمل ويتعمق فى الأمور والأشياء، إلا أنها عجزت تماما عن الوصول إلى الحقيقة.. إنها تطرح علامات استفهام.. وقد تكون الإجابات علامات استفهام أيضا!. ولا أريد أن أردد القول الساخر الذى كنا نسمعه عندما ندرس الفلسفة فى الجامعة.. أنها أشبه بمن يبحث عن قطة سوداء فى حجرة مظلمة!!

صحيح أن الفلسفة هى إحدى مفاخر العقل الإنسانى الذى جعل الإنسان يدخل دروبا مختلفة بجسارة ليعرف.. وأنها أقحمت العقل الإنسانى بجسارة فى مجالات المعرفة حتى لايخضع لأوهام الخرافات والأساطير.. وأن يميز الحق من الباطل.. والهدى من الضلال.. وأن يتجرأ إلى اقتحام ميادين ما وراء الطبيعة.. وما وراء الحس، بحثا عن الله ودلائل وجوده، وأنه هو المطلق.. الذى لايحده زمان ولامكان.. وأن قدراته وكماله بلا حدود.. ولكنها عجزت عن الوصول إلى اليقين الحقيقى الذى لم نعرفه إلا من خلال الوحى.. لأن العقل يخطىء حينا، ويصيب أحيانا أخرى. ولكن الوحى لايخطىء لأنه معصوم.. وهذا ما عرفته الإنسانية عن طريق أنبياء الله ورسله من خلال ما تنزل عليهم من وحى السماء.. فى كتبه المنزلة.. كما فى قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧].

وفى قوله تعالى:

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٣، ٤].

فالفلسفة لها براهينها العقلية والحدسية والإلهامية التى دفعت بالفكر الإنسانى إلى الأمام بلاشك، ولكنها عجزت أن تصل بالإنسان إلى شواطىء اليقين.

* * *

و . . قد اتجهت الإنسانية إلى العلم عندما انجلت أهميته فى حياة الإنسان العملية والمعرفية. . وسيلة العلم هى التجربة، استخدام العلوم الرياضية وسيلة لهذا التقدم العلمى. . هذا التقدم الذى حاول أن يعرف أسرار المادة. . وأسرار الخلية الحية. . وأسرار الصحة والمرض. . وأسرار الكائنات الحية على الأرض وفى أعماق البحار والمحيطات، كما حاول أن يعرف أسرار الكون الفسيح عندما حاول غزو الفضاء ومعرفة شىء عن هذا الكون الذى لايمكن تصور إتساعه حتى بالخيال. . فنحن على أرضنا كوكب صغير يدور حول الشمس، والشمس شىء ضئيل بالنسبة للمجرة، والمجرات تملأ فضاء كوننا والتى تقدر المسافات بينها بملايين السنين الضوئية. . وما عرفه الإنسان فى كل هذه الميادين جد ضئيل!

* * *

ورغم التقدم المذهل للعلم والتكنولوجيا فى عصرنا الحديث، والذى يفوق فى اكتشافاته فى العقود الثلاثة الأخيرة فقط ما يوازى تقدم البشرية فى كل عصورها.. ومازال العلم يقتحم مجالات كثيرة ولا أحد يعلم إلا الله مدى ما سيصل إليه من كشوف علمية تغير موازين الرؤية للحياة.. ومع ذلك فإن العلماء يعرفون تمام المعرفة أنهم مازالوا على شاطىء المحيط العلمى لايعرفون إلا بعض الأصداف أما اللآلىء فتقبع فى الأعماق!

لقد تأملت فى العطاء العلمى وما قدمه للإنسان من فوائد فى حياته.. وعلاقاته بالآخرين.. والالتقاء (بالآخر) حتى لو كان فى أقصى الأرض.. وثورة المعلومات والاتصالات كل ذلك تقدم حضارى وعلمى مذهل.. ولكن كل هذه الإنجازات العلمية لاتهب الإنسان اليقين.. الإيمان الحقيقى.. الاعتقاد الصحيح.. لاينفذ إلى أعماق الإنسان فيهبه الراحة والاستقرار والأمن والأمان.. إنه مازال عاجزا عن أن يهب الإنسان إلى السعادة.. بل إن الإحصائيات تقول أن أرقى الدول تقدماً فى المجال العلمى والاقتصادى بها أكبر نسب الانتحار.. أى إن المال.. والعلم لم يحققا السعادة للإنسان، وربما يكون العكس، لأن الترف مفسد.. بل أن الترف هو الذى يؤدى إلى انهيار الحضارات وتفككها، وغروبها فى النهاية.. هذا الكلام ليس من عندى ولكن هو كلام كبار المؤرخين من أمثال توينبى وغيره!

وإذا كان الإنسان قد عجز عن فهم نفسه، فكيف يتسنى له معرفة الكون من حوله.. إن كل ما قيل من نظريات حول طبيعة الحياة.. هو مجرد نظريات لم تصل إلى درجة اليقين، وكل ما قيل عن نشأة الكون، والانفجار العظيم الذى حدث منذ مالا يحصى من بلايين السنين، والذى تسبب عنه نشأة هذا الكون بمجراته ونجومه وكواكبه، مجرد حدس علمى، ولكن هذه النظريات على الأقل تثبت كَمْ أن هذا الكون الرائع فى تكوينه وخلقه أن وراءه قوة عظمى خلقته، فليس من المعقول أو المنطقى، أن يكون هذا الانفجار العظيم الذى تحدث عنه علماء الفلك الذى بدأ بكُرة صغيرة مشتعلة وعلى درجة حرارة عالية جدا، وبانفجارها تكوّن هذا الكون العظيم.. ليس من المعقول أن هذه الكرة خلقت نفسها بنفسها، وفجّرت نفسها بنفسها لينشأ هذا الكون..!

* * *

ولنقف عند كلام أحد كبار علماء هذا العصر (فرانسيس هارى كوميتون كريك) وهو عالم بيولوجى فيزيائى بريطانى نال عام ١٩٦٢ جائزة نوبل فى كتابه (طبيعة الحياة) الذى ترجمه الدكتور أحمد مستجير.. فهو يتحدث فى أحد فصوله عن المهرجان الكونى يرى أنه إذا كان من الصعب أن نتفهم نشأة الحياة لأنها حدثت منذ زمن

بعيد جدا، فالمفروض أن نشأة هذا الكون - التى سبقتها مؤكدا بوقت طويل - لابد أن تكون أكثر تعذراً على الفهم. . وهذا ليس صحيحاً تماماً، لأن التفاعلات اللازمة لبدء أى نظام حى هى مجموعة متشابكة محدودة من كوكبة كبيرة غيرها من التفاعلات الممكنة فى بيئة لامتجانسة لحد بعيد، أما فى المراحل الأولى لنشأة الكون عند الانفجار الهائل فقد كانت الأشياء كلها وثيقة الاختلاط حتى ليمكن القول بأن أهم ما كان يسود العملية عندئذ هو الخطوط العريضة للتفاعلات، وبذا يفترض أن يكون تفهمها أقرب منالا.

وتركزت المناقشات الحديثة عن أصل الكون - كلها تقريبا - على نظرية الانفجار الهائل Big Bang.

وهذه تفترض أنه فى المراحل الأولى التى يمكننا التفكير فيها تفكيرا مجديا، قد تكون مادة الكون كلها تشغل حيزا صغيرا بالفعل، وكانت على درجة عالية جدا، وقد كانت هذه الكرة الملتهبة البدائية تتمدد بسرعة كبيرة، وكانت تبرد أثناء تمددها وقد كتب (ستيفن واينبرج) كتاباً ممتازاً يشرح فيه للقارىء العام أنواع التفاعلات التى يرجع حدوثها فى الدقائق الثلاث الأولى.

ويقول المؤلف أيضا:

وتنبنى الصورة من معارفنا الحديثة عن الجسيمات الأساسية للمادة والإشعاع، بجانب البعض القليل من الحقائق التجريبية، مثل

خلفية الإشعاع الكونى الذى ينتشر الآن عبر الفضاء كله - همس الخلفية الخافت الذى يسمع بالكاد بالتلسكوبات اللاسلكية - ومثل هذا التكوين الخيالى لايكون بالضرورة مأمونا تماما.. ويعترف واينبرج بشعور بالاصطناع يخامره أحياناً عند الكتابة عنه، أما أهم الحقائق الأخرى المعروفة التى نحتاج إليها لبناء النظرية فهى تمدد الكون الذى تبينه الإزاحة الحمراء الشهيرة، وكذا ذلك التيقن الهائل فى كوننا اليوم من جسيمات الإشعاع الكهرومغناطيسى (الفوتونات) مقارنة بجسيمات المادة (الباريونات Baryons) تبلغ النسبة ١٠ ⁹ (يعنى عشرة أمامها تسعة أصفار).. أى بليون إلى واحد، بجانب الندرة النسبية للعناصر الثقيلة، فحتى فى كوننا الحالى سنجد أن ٩٩٪ من الذرات موجودة فى صورة هيدروجين وهيليوم، أخف عنصرين، والأول منهما أكثر شيوعا.. ومن كل هذه الحقائق تمكن الفيزيائيون النظريون من أن يستنبطوا أن يعد واحد من مائة من أول ثانية (وهذا أمر أبعد فى الشك).

أصبحت الكرة الملتهبة مزيجا متشابكا من الإشعاع والمادة يتفاعل بسرعة وبعنف فى درجة حرارة رهيبة تبلغ نحو ١٠ وأمامها ١١ صفر درجة ويتحدد بسرعة بالغة.

ويمضى المؤلف يحدثنا عن تكوين الكون عقب هذا الانفجار العظيم.. وكيف تكونت المجرات والنجوم والكواكب وكيف أن العالم يتمدد ويتسع.

ولكن المؤلف يتوقف عند نقطة بالغة الأهمية عندما يرى أن هذا الكون مصيره الزوال. . كيف؟

يقول المؤلف:

وبسبب حدوث هذا الانفجار الكونى الأول استمر العالم منذ ذلك الوقت فى الاتساع، أما استمراره فى التمدد إلى ما لانهاية أو بتباطئه حتى يتوقف ويرتد على نفسه، فيعتمد على ضخامته نفسها، فكما يسقط الحجر مرتدا إلى الأرض إذا أُلقى به عاليا فى الهواء، إلا إذا دفع به فى سرعة يهرب بها تماما من الجاذبية، فكذلك الكون، سيظل يتسع إلا إذا كانت كتلته من الضخامة بحيث توقف الجاذبية هذا التمدد فى نهاية الأمر وتعكسه، فإذا كان الأمر كذلك، ففى وقت ما فى المستقبل البعيد سينهار على نفسه فى واقعة مأساوية أخرى، كان من المسلم به أن الكثافة المقدرة للكون أصغر من أن تسمح بهذا، والكثافة الحرجة تعادل نحو ثلاث ذرات هيدروجين فى كل لتر - من الفراغ - غير أنه يظن الآن أن هذه الجسيمات الصغيرة عديمة الشحنة المسماة (النيوترينو) والمنتشرة فى الكون بأسره، والتى كان يظن سابقا أنها كالضوء بلا وزن، هذه الجسيمات ربما كانت لها كتلة محددة وإن كانت صغيرة جدا، فإذا كان الأمر كذلك فقد يكون بالكون من هذه الجسيمات ما يمنعه من التمدد إلى الأبد.

* * *

ويمضى المؤلف يحدثنا عن المسافات الشاسعة فى هذا الكون والذى لايمكن تصورها أو تخيلها بمقياس الخيال وما فيه من مجرات لايمكن تصور أعدادها وأحجامها، ثم يقول إن عمر الأرض وبقية النظام الشمسى نحو ٤,٥ بليون سنة، أما الزمن الذى مر منذ نشأة الكون فلا يمكن تحديده بنفس هذه الدرجة من الدقة، ولكنه على الأرجح يتراوح ما بين ٧ ، ١٥ بليون سنة، ولم يكن هناك تقريبا أى من العناصر الثقيلة عند بدء الكون، ولكن ظهرت منها كميات محسوسة بعد بليون سنة أو نحو ذلك!!

* * *

إن مجرد التأمل فيما أورده هذا المؤلف الحائز على جائزة نوبل، ترينا أن الإنسان.. مخلوق ضعيف.. يعيش على ذرة صغيرة فى ركن من أركان هذا الوجود.. وأن هذا الكون على عظمته، نهايته الفناء.. إنه سوف يموت.. سوف ينتهى.. شأنه شأن كل الكائنات التى نعرفها على أرضنا.. وأن نهاية الكون تعنى القيامة.. تعنى اليوم الآخر.. تعنى الخلود الذى حدثنا عنه خالق الكون ومبدعه -جل علاه- فيما نزل من كتب على رسله الكرام.

ومع ذلك يظل هذا الوجود وكيف تكون لغزا، فإذا كان الإسلام يحثنا على ضرورة العلم، وأن ننظر فى ملكوت السماوات والأرض، ونتأمل كتاب الوجود كما نتأمل فى كتاب الله.

يقول تعالى فى سورة يونس:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٥، ٦].

ويرى القرآن الكريم أن تأمل الوجود، والوعى بآيات الله فى كونه يعمق الإيمان فى القلوب، ويبث روح الطمأنينة فى الوجدان، ويغرس فى النفس عظمة الخالق الأعظم.

يقول تعالى فى سورة البقرة:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

ومن هنا كانت أهمية العلم فى الإسلام، والعلم فى الإسلام ليس العلم بأمور الدين فقط، ولكن العلم بكل ما يعنيه العلم فى مختلف العلوم التى تعين الإنسان على فهم دينه.. وفهم نفسه.. وفهم الآخرين.. وفهم الكون الذى يعيش فيه.

قال تعالى:

﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة: ١١].

والعلماء هم أخوف الناس من الله، وأخشاهم له.. لأنهم يعرفون ويقدرون مدى عظمة الله، وقدرته التى لانهاية لها.

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨].

ومن هنا لم يكن عجيبا أن يقول محمد بن عبد الله أعظم رسل الله عليه الصلاة والسلام، والذى علمه ربه وأدبه فأحسن تأديبه.. يقول فى أحاديث كثيرة حاضا على العلم، ومعرفة أسرار الحياة:

- العلماء ورثة الأنبياء.

- لموت قبيلة، أيسر من موت عالم.

- يوزن يوم القيام مداد العلماء بدم الشهداء.

ومن أجمل الأحاديث التى قرأتها فى هذا الشأن قوله عليه الصلاة والسلام.

«حضور مجلس عالم، أفضل من صلاة ألف ركعة، وعيادة ألف مريض، وشهود ألف جنازة».

فقيل يارسول الله: ومن قراءة القرآن؟

فقال ﷺ :

- وهل ينفع القرآن إلا بالعلم.

* * *

العلم إذن يفسر ما يقع تحت الحواس.. ولايقنع إلا بالتجربة ويورد العلاقات بين الأسباب والمسببات، ويكتشف القوانين المادية.. ولكن يظل عاجزا عن تفسير الغاية من هذا الوجود ويظل عاجزا على اقتحام ما وراء الطبيعة.. ولا يفسر لنا الوجود والعدم.. والحياة والموت..

إن العلم يجد أمامه عشرات بل مئات من علامات الاستفهام.. ولاجواب.

هل الإنسان عندما يموت ويعود إلى التراب هل أصبح عدما؟ أين ذهب؟

وما مصير هذا الكائن الحى الذى كان يتحرك ويتكلم ويريد ولايريد، ويحقق أموراً، ويعجز عن تحقيق أمور أخرى.. أين ذهب.. هل أصبحت مجرد حفنة من تراب؟!!

* * *

العلم لايعرف كنه الروح.. هذا الشيء الذى يضيء فى الإنسان والكائنات الحية شعلة الحياة ولايمكن أن يكون الإنسان مجرد هذه الأعضاء المختلفة، وتلك الكتلة من الأعصاب، وهذا العدد من الغدد. وهذا المخ المسيطر على هذا الجسم.. هناك الروح التى تبعث فى كل هذه الحياة.. ولكن ما هى الروح؟

لاجواب!

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٨٥].

وتعود علامات الاستفهام من جديد.. تلك العلامات التى تقفز فى ذهن الإنسان وهو يقرأ ما يكتبه علماء الفلك عن نشأة الكون وتطوره.. هذا الكون الذى قالوا أنه خلق بعد الانفجار العظيم، والانفجار العظيم من كتلة بالغة الشحونة.. ضئيلة الحجم.. ولايجد الإنسان خروجا من هذه الحيرة إلا عندما يقرأ كتاب الله الموحى به إلى آخر رسل السماء.. وهو القرآن الكريم..

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف: ٥١].

ويفسر هذه الآية الإمام ابن كثير بقوله:

يقول الله تعالى هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دون عبيد أمثالكم لايملكون شيئا، ولا أشهدتهم خلق السماوات والأرض، كانوا إذ ذاك موجودين، يقول تعالى أنا المستقل بخلق الأشياء كلها ومدبرها ومقدرها وحدى، وليس معى فى ذلك شريك ولا وزير ولامشير ولا نظير كما قال:

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

لهذا قال:

﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف: ٥١]. قال مالك: أعوانا

* * *

العلم إذن محدود..

يمكن عن طريقه أن نعرف حركة النجوم فى السماء.. وأن نعرف عن طريقه تركيب المادة.. ونعرف عن طريقه وظائف أعضاء الجسم.. ونعرف من خلاله أن هناك وحدة فى الخلق.. تدل على وحدة ما خلق الله.. وأن خالق هذه الأكوان بما فيها من كائنات -نعرفها ولانعرفها- خلق الكون بنظام تحكمه قوانين واحدة.. ولكن هذا العلم نفسه يعجز تماما عن فهم حقيقة الإنسان.. عن فهم جوهر الأشياء.. وأن هذا العلم يمكنه أن يفسر بعض الأمور، ويعجز عن تفسير الأمور الأخرى.

إن الإنسان فى تطوره يكتشف المزيد من عوالم المجهول الذى يحيط بنا، وهذه الاكتشافات نفسها لم تكن من اختراع الإنسان، فالإنسان عندما اكتشف قانون الجاذبية، كانت الجاذبية موجودة قبل هذا الاكتشاف.. و.. قس على ذلك كله ما نراه من تقدم وتطور ويبقى العلم عاجزا عن فهم الكثير.. عاجزا عن الوصول إلى كنه الأشياء.. إن العلم يقترب من ضفاف الحقيقة.. أما الحقيقة نفسها فشىء بعيد المنال.

أو على حد تعبير الدكتورة نعمات أحمد فؤاد فى كتابها (من عبقرية الإسلام) وهى تتحدث عن الإسلام والعلم، وأن الإنسان ما أوتى من العلم إلا قليلا ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥]. على حد تعبير القرآن الكريم فى سورة الإسراء.

ثم ماذا يعرف الناس عن الحياة، وما قبل الحياة وما بعد الحياة؟.

هل أوتوا من العلم إلا قليلا؟؟

وحتى هذا القليل قابل للشك والنفى والإثبات والتعديل والتغيير.

ولكن الإنسان المزهو بنفسه يحلو له أن يتعالم ويدعى التبحر فى المعرفة، ناسيا أن العلم وصل فى علمه إلى أن عمر كوكب الأرض ألفا مليون سنة وأن عمر البشرية من هذين الألفين إنما هو المليون الأخير، أى إن البشرية (وارد حديث) بلغة الموضة ترى ماذا يعرف المزهو بعلمه عن هذا المليون بله الألفى مليون الأولى.. ألا ليته يعرف.. لو عرف لأدرك حجم الكثير الذى ينقصه.. وهنا يحضرنا تساؤل الأستاذ العقاد عمن رأى أول فجر فى سماء الكون لاح!

كم شروقا لم نره؟

كم أصائل كم من الزهور نبتت؟

إن الأرض، ومن عليها، وما عليها، ليست إلا كوكبا فى المجموعة الشمسية وليست الأرض بأكبرها.

إن فى جسم إنسان واحد ملايين الخلايا الحية.. هل استطاع الإنسان أن يخلق خلية واحدة؟!

ويقول الدكتور مصطفى محمود فى كتابه (الله):

والعلم الحديث يعترف بحدوده، ويعترف بأن هناك مناطق من المعرفة محرمة عليه فهو بكل أدواته ووسائله لايستطيع أن يستكشف إلا الجانب الموضوعى من الحقيقة.

كل ما يمكن أن يكون موضوعاً للملاحظة والرصد، والحصر والاستقراء والتجربة يقع فى مجال العلم واختصاصه، ولكن الذات المفردة بحكم كونها ذاتية لايمكن أن تكون موضوعاً للملاحظة.. لايمكن أن توضع تحت ميكروسكوب ولا أن تقاس بالشبر ولا أن توزن بالجرام.

وكل ما نستطيع أن نعرفه عنها معلومات غير مباشرة عن أثرها فى الآخرين وعلى ما يبدو منها فى ظواهر السلوك وغالبا ما تكون هذه الظواهر السلوكية كاذبة ومفتعلة والإنسان إذا اتخذ من ذاته مادة للتأمل فإنها تبرد تحت مبضع التحليل والتشريح وتستحيل إلى جثة وتفقد ذاتيتها وتصبح شيئا آخر.

وإذا استرسل الإنسان فى استقصاء دوافعه وحوافزه الذاتية فإنه سوف يصل إلى نقطة تزول فيها الفواصل بين الأسباب والمسببات، وتصبح الذات نفسها سبباً ومسبباً فى عين الوقت.

وإذا كان الإنسان يعجز عن معرفة نفسه والإحاطة بها فكيف يدعى معرفة ذوات الآخرين أو ينكر ذات الله.

ويقول الدكتور مصطفى محمود أيضا محللا العجز الإنسانى أمام ظواهر الكون.. وأمام فهم ذاته فيقول:

القوانين العلمية لاتصدق على وجه الحكم، ولكن على وجه التقريب باعتبارها معدلات إحصائية لمجموعة كبيرة من الذرات والجزئيات المادية، فهى ترصد حركة تلك الذرات فى عمومها كجيش متحرك ولكن لا يخلو الأمر من عدة جنود يخرجون عن الصف فى كل مرة.

ولهذا لاتتكرر التجربة الواحدة فتأتى بنفس النتيجة أبدا.. إنما يظل هناك فارق طفيف جدا لايخضع للقانون.

وبهذه الروح المتواضعة ترك العلم الحديث مقعد الزهو القديم، وعرس التبجح والمكابرة، وتنازل عن اليقين مكتفيا بالاحتمال والترجيح والإمكان.. وبذلك فتح الباب للكلمة التى يقولها الدين وأفسح صورة لتأملات الصوفى وتعاليم النبى لم تعد مشاعر الصوفى وإلهاماته مسائل تقابل بالسخرية والإشاحة باليد.. إلا من الجهال ومحدودى الأفق.

وفتح العلم ذراعيه للدين بعد قطيعة مفتعلة استمرت سنين.

* * *

ها نحن قد طرقنا على أبواب الفكر والفلسفة، كما طرقنا محطة العلم.. وكل منهما يفضى بأن اليقين الدينى هو نقطة الارتكاز للمعرفة اليقينية لأن العقل يخطىء ويصيب.

ولأن المقاييس العلمية والنظريات العلمية دائمة التغير حتى تصل إلى اليقين العلمى.

ولكن ما جاء به وحى السماء لايخطىء لأن الوحى لايخطىء لأنه من عند الله، فالله هو الحقيقة العظمى.. هو مبدع الوجود وما فيه من كائنات، هو الأول الذى ليس قبله شىء، وهو الآخر الذى ليس بعده شىء.. هو الله - جل علاه - الذى يقول للشىء «كن فيكون».. له الأسماء الحسنى.. وإليه الرجعى.

إن التفيؤ بظلاله هو السعادة الأبدية.. هو الأمل المرتجى.. هو النعيم الدائم المقيم.. هو راحة النفس.. واستقرار الضمير.. وسعادة الوجدان.. هو التصالح مع النفس.. ومع الآخرين.. ومع الكون.

وكل ذلك حصيلة تبلورت فى الدين الخاتم فى الإسلام الذى جاء به آخر رسل السماء محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، الذى كان قرآنا يمشى على الأرض، لأن خلقه كان القرآن الكريم.

ولكن هل هناك علاقة بين العلم والدين؟

لنقف عند ما كتبه الإمام الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق فى

كتابه (الدين والوحى فى الإسلام) فهو يقدمه بما يقرره العلامة الفرنسى إميل بترو: «إن أمر العلاقة بين الدين والعلم، حين يراقب فى ثنايا التاريخ، يثير أشد العجب، فإنه على الرغم من تصالح الدين والعلم مرة بعد أخرى، وعلى الرغم من جهود أعاظم المفكرين التى بذلوها ملحين فى حل هذه المشاكل حلا عقليا، لم يبرح العلم والدين قائمين على قدم المساواة، ولم ينقطع بينهما صراع يريد كل منهما أن يدمر صاحبه لا أن يغلبه فحسب، على أن هذين النظامين لايزالان قائمين، ولم يكن مجديا أن تحاول العقائد الدينية تسخير العلم، فقد تحرر العلم من هذا الرق، وكأنما انعكست الآية منذ ذاك، وأخذ العلم ينذر بفناء الأديان، ولكن الأديان ظلت راسخة، وشهد بما فيها من قوة الحياة عنف الصراع».

ويقول الشيخ مصطفى عبد الرزاق: ولسنا نريد أن نعرض لتاريخ العلاقات بين الدين والعلم على مر العصور، وما تناوبها من سلام وحرب، فإن ذلك بحث يطول، وليس مما قصدنا إليه فى هذا الكتاب، على أنه قد يكون غير خلو من المناسبة لغرضنا أن نذكر ما كتبه إميل بترو عن موقف العلم والدين فى أيامنا هذه إذ يقول:

«ليس التصادم الآن فيما يظهر بين الدين والعلم باعتبارهما مذهبين، بل التصادم أدنى أن يكون بين الروح العلمى والروح الدينى، فليس يعنى العلم أن يكون ما جاء فى الدين من عقائد متفقا

مع نتائج العلم، لأن الأساس الذى يعتمد عليه الدين فيما يجىء به يختلف عن الأساس الذى يعتمد عليه العلم، فالدين يقدم مسائله على أنها عقائد يجب الإيمان بها، أى يجب أن يتقيد بها العقل والوجدان، ويعرضها فى صورة تدل على اتصال الإنسان بنوع من الأشياء يعجز علمنا الطبيعى عن إدراكه، وفى ذلك ما يجعل العالم إن لم يرفض هذه المسائل نفسها يرفض الأسلوب الذى يسلكه المتدين فى الأخذ بها، والمتدين من ناحيته إذا وجد جميع عقائده وعواطفه وأحكامه العملية مفسرة بل مثبتة بالعلم يكون حينئذ أبعد شىء عن مسالمة العلم، فإن هذه الشئون إذا شرحت على هذا الوجه فقدت كل خواصها الدينية».

* * *

مهما يكن من شىء فالذى يبحر فى الدراسات العلمية التى تخدم الإنسان فى حياته، لاتتنافى مع الدين، لأن الإسلام بالذات يحض كما قلنا على العلم، وفى آيات القرآن الكريم الكثير من هذه الآيات التى تحثنا على طلب العلم والانتفاع به فى دنيانا، والرسول العظيم يقول لنا:

- أنتم أعلم بأمور دنياكم.

ومعرفة أمور الدنيا تتأتى عن طريق العلم بالحياة وما فيها، وكيف يتكيف الإنسان معها وبها.. فالحياة هى الجسر الذى نعيش

عليه بما يقدر إلينا من آجال.. وبعدها نغادرها إلى عالم أرحب وأوسع وأخلد.. عالم خالد.. هو الحياة الحقيقية.. هذا العالم يأخذنا بيدنا إلى رحابة الدين.. لأن حقائقه تأتى عن طريق الوحى.. والوحى لايأتى إلا بالحقائق لأنه لايخطىء والعمل من أجل هذه الحياة الخالدة هو أصل الوجود الإنسانى.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧].

* * *




(٣)
على شواطئ
الليل

قلنا أن الإنسان هدته الفطرة إلى وجود الله، وكان الفكر والفلسفة أداتين لتوسيع المدارك الإنسانية ولكن ماوراء الوجود نهتدى إليه بنور الله، كما أن العلم يرينا كم أن حجم الإنسان ضئيل فى هذا الوجود، وأنه يسكن ذرة هائمة وسط عوالم فسيحة لايمكن تصورها ولا بمقياس الخيال، وأن الأمن والأمان للإنسان فى الدين.

هل يمكن أن يعيش الإنسان بلا إيمان؟

قلنا إن الفلسفة والفكر لايمكنهما أن يقودا الإنسان إلى الشاطىء الآمن، وأن الفلسفات التى طبقت فى دنيا الناس لم ينجم عنها إلا تعاسة الفرد وتعاسة المجتمع.

الفلسفة الوجودية بأنانيتها وتمحورها حول الفرد.. وأن على الفرد أن يعيش حياته دون مراعاة للآخرين، لأن الآخرين هم الجحيم كما يقول أحد فلاسفتهم سارتر..!

وإذا كانت الوجودية قد انتشرت فى فرنسا وفى غيرها من دول الغرب، عقب الحرب العالمية الثانية وما فيها من ويلات جعلت البعض يرى أن الحياة تكمن فى الأنانية والفردية وحب الذات، واغتنام كل فرص لإثراء الذات.. فإن هذه الوجودية قد وئدت.. وذهب عصرها بعد أن انطفأ بريقها.. ولم يعد أحد يتحدث عنها إلا كمذهب فلسفى يدرس فى أقسام الفلسفة بالجامعة.

* * *

والشيوعية كان لها بريقها. . وألبسها فلاسفتها ثوب العلم، وقالوا إن حركة التاريخ تتجه صوب تحقيق ما تنادى به الماركسية، ولكن الماركسية التى اكتسحت روسيا وأقامت الاتحاد السوفيتى، وانتشرت فى الصين ودول الكتلة الشرقية لم تلبث أن انهارت، وسقط الاتحاد السوفيتى، وتزعزع كيانها فيما كان يسمى الكتلة الشرقية، وابتدأت الصين توائم بين النظرية وبين تطبيقها فى بلادها بما يتلاءم مع تراث الصين.

إن الشيوعية التى أنكرت (الله). . وتصورت أن الله (اختراع بشرى). . وأن الدين أفيون الشعوب، نسيت الشيوعية أن الذى هدم نظريتها، فانهارت هى خلوها من القيم الروحية. . فها هو (هوبز) أستاذ كارل ماركس يقول:

«إن الأشياء المادية وحدها هى المحسوسة بالنسبة لنا، فأنا لا أستطيع أن أعلم شيئا عن وجود الله. . إن وجودى الخاص بى هو وحده الأمر المؤكد، أما ما عداه فخيال لا أصدقه!»

* * *

وكان ماركس يرى أن من أهداف الشيوعية هى القضاء على الدين والداعين إليه.

أما لينين فكان يقول:

«إن الدين هو أفيون الشعوب، وهو نوع من الخمر الروحية، يغرق فيها عبيد الرأسمالية صورتهم الإنسانية، والبحث عن الله لا فائدة فيه، ومن العبث البحث عن شيء لاوجود له، لابد من محاربة الدين. . هذا هو لب الماركسية وينبغي أن تعرف كيف تحارب الدين».

* * *

يكشف ستالين الذى أذاق الاتحاد السوفيتى أمرّ العذاب الديكتاتورى، وهو يحاول أن يلبس رؤيته ثوب العلم فيقول:

إن العالم يتطور تبعا لقوانين المادة، وهى ليست بحاجة إلى عقل كلى!

ولما كان الشرق الإسلامى متمسكا بالقيم الإسلامية، والإسلام يسود بقيمه وروحه وتقاليده، فقد كان قادة الشيوعيين يرون أن هذا الدين هو العقبة فى سبيل انتشار الشيوعية فيه، وأن الشيوعية لكى تغزو العالم الإسلامى عليها أن تقضى على الإسلام أولا، فقال مولوتوف. . أحد زعماء السوفيت فى إحدى خطبه:

«لن تنتشر الشيوعية فى الشرق الأوسط إلا إذا أبعدنا أهله عن تلك الحجارة التى يعبدونها فى الحجاز، وإلا إذا قضينا على الإسلام».

* * *

لقد كنت أسأل نفسى، لماذا كل هذه الحملة المسعورة على الأديان بصفة عامة والإسلامية بصفة خاصة؟.. لماذا حاول الشيوعيون تحطيم كل الجسور التى تربط الإنسان بخالقه؟.

وهل يمكن أن يعيش الإنسان بلا إيمان؟ والإيمان فى الإسلام مبنى على العقل والنقل.. الإسلام يدعو الإنسان إلى تأمل هذا الكون الفسيح الذى لايعرف أبعاده سوى الله.. وأن الإنسان عندما اخترع التلسكوبات، وارتاد الفضاء فى محاولة لمعرفة أسرار هذا الكون، لم يعرف عنه سوى أن الأرض ما هى إلا زرة وسط هذا الفضاء الذى لايمكن تصور اتساعه بما فيه من ملايين المجرات والكواكب التى تسبح فى فضاء الله العريض وأن العقل عاجز تماما عن فهم أسرار هذا الكون، ولكن الإسلام يدعوه إلى التأمل والتفكير.. وأن وراء هذا الكون المعجز قوة لايمكن تصورها وتخيلها أبدعته.. وأبدعت قوانينه.. وأن كل شىء فى هذا الكون يشير إلى وجود الخالق الأعظم فلا يمكن لعاقل - حتى لو عجز العقل عن التصور الشامل للكون، أن ينكر أن وراء هذا التناسق، أو تلك القوانين ووحدة الخلق وجود الله فكيف يتسنى لتلك المذاهب أن تنكر ما هو موجود بالفطرة.

الإنسان منذ الأزل ينزع إلى العبادة.

مثل الطفل الذى ينزع إلى الرضاعة من ثدى أمه بلا تعلم..!

إنها الفطرة . . !

فكيف ننكر هذه الفطرة؟ .

* * *

لقد تعلم الإنسان وعرف الإيمان منذ آدم عليه السلام، ولكن عندما طال الأمد بالناس، ونسوا رحيق ما جاء به رسل الله، عبدوا الأصنام، أو الكواكب، أو حتى الفراعنة . . وهم حتى فى ضلالهم ينزعون إلى العبادة .

فالذين عبدوا الأصنام تذرعوا كما يقول القرآن الكريم بأنهم لم يعبدوها إلا لتقربهم إلى الله زلفى .

ولعل أديب روسيا الكبير تولستوى، قد عبر عن هذه الفطرة التى فُطرّ عليها الإنسان، بأهمية عبادة الله . . وأنه لامعنى للوجود بلا خالق . . ولامعنى للحياة إلا بالإيمان بهذا الخالق العظيم . . لأن هذا الإيمان لاينكره القلب . . ولا العقل . .

يقول تولستوى :

«لقد نبذت تلك العقائد الدينية فى أول الأمر، ووجدتها عديمة المعنى، ثم قبلتها الآن، وألفيتها مليئة بالمعانى، ذلك لأنى كنت مخطئا، وأدركت سبب الخطأ، وهذا السبب ليس ناشئا عن تفكيرى السيىء فحسب، بل لأننى عشت فى بيئة سيئة، وذلك أشد السببين خطأ . ويقول تولستوى أيضا :

«ما الحياة وما الموت؟

إننى لا أعيش إذا فقدت العقيدة فى وجود الله، ولولا أننى كنت أتعلق بأمل غامض فى وجود الله لقتلت نفسى من زمان بعيد؟!»

ويتابع قوله:

«إننى أحيا - وأحيا حقيقة - حينما أحس به وأبحث عنه فقط، ويصيح من داخلى صوت يقول:

عن أى شىء تبحث بعد هذا..؟ هذا هو.. إنه ذلك الذى لا يستطيع المرء بدونه أن يعيش، إنه الله.

وعندما اعتقدت فى وجود الله، اعتقدت فى الكمال الخلقى، وفى التقاليد التى تحمل معنى الحياة».

* * *

هذا ما قاله أديب ومفكر من أكبر أدباء العالم، نشأ فى روسيا، وتبرع ببعض ممتلكاته للمحتاجين، ولم يكن يدرى أنه ستقوم ثورة شيوعية فى بلاده تحطم كل القيم الروحية، وتحارب الأديان، وتزرع الفساد والدمار والخراب.. وأن هذه الثورة أيضا سوف تنهار، بل انهارت بالفعل.. وعاد الناس يفتحون قلوبهم للإيمان، ويرون فيه الأمن والأمان، وراحة النفس عندما تشتد الأزمات، أو تحل بالإنسان الكوارث، أو يلم به المرض، فيطلب العون من الله، ويعود لنفسه الأمل والأمان.

* * *

وهذا هو شاعر الهند الكبير رابندرانات طاغور، ينفذ بوجدانه إلى نور الله.. ويعبر عن أحاسيسه تجاه عظمة الخالق.. نور كل شيء بهذه الترنيمة الجميلة:

هو ذا الحائط الكبير ينشق، ونورك الساطع يا إلهى، نورك الشبيه بضحكة مشرقة ومجلجلة، يتدفق من الحائط فجأة ويغمر الدنيا.

إن قلب الليل نفسه قد اخترقه نورك العظيم، وأنت بسيف نورك الباتر تخترق حجب الشكوك وتقطع المخاوف والأوهام.

أسرع.. أسرع إلى أيها الرائع المروع فى بياضك الناصع الذى لم يشبه أى دنس.

إن طبول نورك تدق أغنية من لهب، وشعلة نورك ترتفع فى الفضاء كراية تهتف بفرح الحياة، والموت تجاه نورك ينهار ويحتضر فى تفجر يملأ دويه قلب العالم!

إلا أن هذا النور لهو انتصار الفرح.. فرح الإنسان بخلاصه من ذله، وخلاصه من رجسه، وخلاصه من نفسه، وعودته طاهرا نقيا إليك.

ولنفس الشاعر ترنيمة جميلة، يعبر عنها بحس صوفى جميل عن (الحبيب الأعظم).. والحبيب الأعظم هو الله يقول الشاعر الهندى الكبير:

- الشتاء الليلة يحمل نسمات الربيع . . والهواء يرف حولى كأنه يتماوج على شراع من حرير، والأغصان تتهامس، والريح تغمغم، والصمت يشبه آنية كبيرة يتساقط فيها الحلم كالرحيق.

ما أسعدنى بهذا الحلم وإن كان مبهم الصورة فى خاطرى. . فى أى شىء أحلم، وفى أى شىء أفكر، لا أدرى! أنا سابح فى فتور حواسى، ممعن فى تنشق النسمات جهدى، مستغرق فى السهوم والشرود كأنى روح حائر تطوف به أشباح.

نعم . أدركت.

فهمت السر . .

لقد تخلصت من عقلى . .

وتحررت من بدنى . .

وتجردت من ماديتى.

وانطلقت على أجنحة هذا الحلم المبهم الغامض أبحث بالرغم منى، وفى نشوة شرودى وسهومى وفراغ نفسى، عن ذلك الحبيب الأبدى المطلق العظيم. . الذى هو أنت يا ربى؟

* * *

الله هو الحق والحقيقة. .

الله هو نور السماوات والأرض.

الله هو الخير المطلق.. والجمال المطلق.. والعدالة المطلقة.. الله قيوم السماوات والأرض.

الله هو الأول بلا بداية.. والآخر بلا نهاية سبحانه وتعالى له الأسماء الحسنى.. وهذه الأسماء هى صفاته جل علاه.. لاشبيه له ولا نظير.. ولايمكن تصوره لأنه فوق الزمان والمكان.. ونحن ندرك الأشياء من خلال الزمان والمكان.. فهو الإدراك، ولكنه مع ذلك قريب.. أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد.. يعرف كل ما يدور فى كونه..

حتى ما يسر به الإنسان بينه وبين نفسه.. يعلم حركة الكواكب والنجوم إلى أصغر حركات الذرات والالكترونات.. يعلم ما يجرى فى أعماق البحار والمحيطات والأنهار، وكل شىء فى هذا الوجود.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [فاطر: ٣٨].

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

هذا هو الله كما يقربه إلى أذهاننا القرآن الكريم . . رب قادر مقتدر . . يعرف أسرار كل شيء . . وهو مع ذلك بالمؤمنين رؤوف رحيم، ووسعت رحمته كل شيء .

هنا نقترب من شواطىء الإيمان .

فاجتهادات المفكرين والأدباء والشعراء والفلاسفة فى الوجود، إنما تخضع لعقل محدود، وإدراك محدود، وفهم للوجود محدود .

ولايمكن للعقل البشرى أن يفسر ما غاب عن الإنسان فى مسائل ما وراء الوجود ولايمكن للعلم وحده أن يفسر لنا العالم ووجود الإنسان والمغزى من هذا الوجود ولايستطيع أن يبرر لنا المصير الإنسانى ولايستطيع تفسيره .

إذن فالمرفأ الآمن هو مرفأ الإيمان .

وقاعدة الانطلاق لفهم أنفسنا ودورنا فى الحياة، ومصيرنا بعد الحياة، يأتى من خلال ما جاء به الوحى على لسان الرسل والأنبياء . . إن ما جاء به الإسلام، وهو خاتم الرسالات السماوية يعطى للإنسان خريطة واضحة المعالم والقسمات عن معنى وجوده . . ويرسم طريقه للحياة فى هذا الوجود، كما يوضح له الجسور التى يجب عليه أن يعبرها حتى ينال سعادة الدنيا والآخرة . . ولخصها فى كلمتين :

الحلال . . وهو ما أمر الله به أن نفعله .

والحرام . . وهو ما نهانا الله أن نقترب منه .

ولأننا بشر نخطىء ونصيب، فإن باب المغفرة مفتوح أمام أى إنسان ليعيد الصلح مع نفسه ومع خالقه إن الإنسان كثيرا ما يشده التراب الذى خلق منه إلى الأرض، ولكن الروح التى هى نفحة ربانية تجذبه وترفعه إلى السماء.

وفى رحاب الدين.. عندما يستقر الإيمان فى القلب والوجدان، يجعل للحياة معنى وهدفا.. ويصبح لوجوده قيمة، ويشعر الإنسان أنه يعيش دنياه، ولكنه فى هذه الدنيا كغريب استظل بظل شجرة وتركها كما قال أعظم رسل السماء محمد عليه الصلاة والسلام.

* * *

وكل الرسالات السماوية جاءت من مصدر واحد.. من نبع واحد.. وكان الإسلام هو الدين الخاتم الذى جمع بين العقيدة والشريعة.. فقد رسم للناس كيف تكون عقيدة التوحيد، كما جاء بالشريعة ليكون الناس على بينة من أمر دينهم ودنياهم.

يعملون فى دنياهم ويستمتعون بها فى حدود ما أحله الله كأنه يعيش أبدا.. ويعملون لأخراهم بمنهج الله كأنهم سيموتون غدا.

وجاء الإسلام وبه ثوابت ومتغيرات.. الثوابت هى أركان الدين، والمتغيرات هى التى يجتهد فيها المجتهدون حتى تصبح التشريعات صالحة لكل زمان ومكان، ولاتصبح قوالب جامدة متحجرة توقف حركة التقدم والحضارة والحياة..

* * *

وإذا كنا لانعرف شيئا بعقولنا أو أحاسيسنا إلى ما وراء الحس . . إلى ما وراء الوجود، فقد أرسل الله رسله وأنبياءه . . سلاحهم ما جاءوا به من العلم عن طريق الوحى .

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

ويرى الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الأزهر الأسبق وهو يتحدث عن الوحى فى القرآن، أنه ورد ذكر هذه المادة فى سبعين آية من القرآن، منها أربع وستون آية مكية، وست آيات مدنيات وأكثر ما ورد فى الآيات القرآنية إنما هو الفعل ماضيا أو مضارعا أما (كلمة الوحى) فجاءت ست مرات فى سور كلها مكية .

وعن كلمة الوحى فى القرآن يقول:

وأما لفظ (الوحى) فقد ورد فى القرآن ست مرات هو فيها كلها من الله تعالى، والموحى إليه فيها جميعها من الأنبياء وهذا هو إيحاء الله إلى أنبيائه ورسله، أى إلقاؤه إليهم ما يريد أن يعلموه من المعارف الدينية .

وعبر القرآن عن هذا المعنى بالتنزيل، فجعل القرآن وحيا وجعله تنزيلا كما قال:

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧].

وقال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢].

وقال: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٣، ٤].

وعبر عنه أيضا بالكلام فى قوله:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١].

حيث جعل الوحى نوعا من كلامه وقسما من أقسامه، ففرق بين تكليم الوحى والتكليم بإرسال الرسول والتكليم من وراء حجاب.

لكن فى السورة الرابعة (سورة النساء مدنية) ما يدل على أن التكليم غير الوحى وقسيم له، وذلك لقوله عز وجل ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣، ١٦٤].

فذكر فى أول الآية وحيه إلى ونوح والنبيين من بعده، ثم خص موسى من بينهم بالإخبار بأنه كلمه، وهذا يدل على أن التكليم الذى

حصل له أخص من مطلق الوحى الذى ذكر فى أول الآية، ثم أكد بالمصدر المفيد تحقيق النسبة ورفع توهم المجاز.

قال الفراء: العرب تسمى ما يوصل إلى الإنسان كلاما بأى طريق وصل، ولكن لاتحققه بالمصدر، فإذا حقق بالمصدر لم يكن إلا حقيقة الكلام.

ويذهب ابن قيم الجوزية فى كتابه مدارج السالكين إلى أنه يمكن جعل الوحى قسما من أقسام التكليم وجعله قسيما للتكليم باعتبارين فإن قسيم التكليم الخاص الذى يكون من الله لعبده بلا واسطة بل منه وإليه، وقسم من التكليم العام الذى هو إيصال المعنى بطرق متعددة.

وعلى هذا فالوحى قسم من كلام الله العام جاءت به آية الشورى، وهى الآية التى جعلت كلام الله لعباده على ثلاثة أنحاء لايجاوزها.

وقد ذكر المفسرون فى تأويل هذه الآية أنه ما صح لأحد من بنى آدم أن يكلمه ربه إلا على أحد ثلاثة أوجه: إما على الوحى، وهو الإلهام والقذف فى القلب أو المنام، وإما على أن يسمعه كلامه ولايراه من غير واسطة مبلغ كما كلم نبيه موسى عليه السلام، وإما على أن يرسل الله من ملائكته رسولا، جبريل أو غيره، فيبلغ ذلك الملك إلى المرسل إليه البشرى ما يشاء الله من أمر ونهى وغير ذلك!

* * *

وخلاصة ما قاله المفسرون إن الله يوحى إلى رسله ما يشاء ويشرح لنا ذلك الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله:

«إن روح القدس نفث فى روعى أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب».

وتروى كتب السيرة أن الوحى كان يأتى بصور كثيرة.. يأتى على شكل بشر، ويأتى من خلال الرؤيا الصالحة، وأحيانا يأتى مثل صلصلة الجرس فينفصل عن الرسول وقد وعى عنه ما قال.

* * *

جاءت رسالة محمد عليه الصلاة والسلام بالرسالة الخالدة.. رسالة تؤمن بكل الأنبياء والمرسلين السابقين كإيماننا بالنبى الخاتم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ﴿١٥٠﴾ أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٥٠ - ١٥٢].

جاءت الرسالة الخالدة.. بمنهجها وعقائدها وشريعتها لتجعل الإنسان يحس الأمن والأمان.. ويحس بالتوازن الداخلى.. فى ظل مجتمع يتنسم نسائم الحب والمودة والعدل والتقوى.. ويراعى

المصلحة.. مصلحة (الأنا).. ومصلحة (الآخر).. ليعيش الجميع يحكمهم دستور سماوى رائع.. جاء من عند الله الذى يعرف ما يصلح النفس الإنسانية.. لتعيش الحياة.. وتعمل من أجل العالم الآخر.. بعد أن ينتهى العمر.. وتبدأ رحلة الإنسان إلى العالم الخالد.. هذا العالم الآخر حيث الثواب والعقاب.. وحيث النعيم أو الجحيم.. وحيث يوضع الميزان.. ويرتفع لواء العدل.. وحيث نرى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

* * *

وفى واحة الإيمان تسمو المشاعر وترق.. وترتفع الروح إلى آفاق عليا.. وكلما اقترب الإنسان من ربه بما فرض عليه من فرائض.. شعر بسعادة الإيمان.. وانتابته أحاسيس بقيم الإسلام الرفيعة.. فها هو رسولنا العظيم فى أخريات أيامه فى الدنيا يحدث الصحابة عن العالم الآخر الذى ينتظرنا عندما نخلص من دنيانا.. فقد قال لهم:

«إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة..

فيقولون: لبيك ربنا وسعديك

فيقول هل رضيتم؟

فيقولون: وما لنا لانرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك؟

فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك؟

فيقولون : وأى شىء أفضل من ذلك؟

فيقول: أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم أبدا».

واستشعر المؤمنون بالسعادة التى أعدت للمؤمنين فى قول رسولهم عليه الصلاة والسلام:

«إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما يتراءون الكوكب الفاير من أفق السماء من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم.

قالوا: يارسول الله منازل الأنبياء لايبلغها غيرهم؟

قال: بلى، والذى نفسى بيده.. رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين».

أى إن المؤمنين الصالحين يرافقون الرسل غرفهم العالية.

وكما بشر المؤمنين الصالحين بالجنة، حذر الأشرار من العذاب وكان يقول:

«عرضت علىَّ الجنة والنار آنفا فى عُرْض هذا الحائط، فلم أر كالخير والشر».

و.. ما أعظم الإبحار فى عالم الأسرار والحب والجمال.. عالم الدين.. ولنتوقف قليلا لنطوف حدائق الإيمان.

* * *



(٤)
فى حدائق
الإيمان

الإيمان هو ذلك الإحساس الجميل بالخالق الأعظم واهب الحياة والوجود، وأن وراء كل ظواهر هذا الوجود - ما نعرفه وما لا نعرفه- الله سبحانه وتعالى الذى لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء، وأن هذا الخالق العظيم وسعت رحمته كل شئ وأنه خلق هذا الوجود من العدم.

وإذا كان الفكر الإنسانى يحاول أن يدرك ما حوله فى هذا الوجود، فإن هذا الفكر قاصر عن إدراك كنة هذا الوجود، لأنه محدود الإمكانيات، إن الفكر متمثلاً فى العقل يدرك أن وراء كل معلول علة، وأن علة هذا الوجود هو الخالق الأعظم - جل علاه - وأن وراء هذا الإبداع الكونى، والتناسق المدهش فى الأرض والفضاء بما فيه من كواكب ونجوم ومجرات يدل على مبدع الوجود.

* * *

الإسلام لا يعطل عمل العقل، بل يطلب منه أن يفكر فى كتاب الكون المفتوح، وأن يعرف السبب والمسببات ليعرف.. وليعلم.. وليتعلم، ويحاول أن يهتدى إلى قوانين هذا الكون ويسخره لخدمته والعلم يكشف فى كل عصر من العصور عن بعض ما فى هذا الوجود من عجائب، وسيظل يتقدم مع تقدم العلوم إلى أن تقوم الساعة.

فأنت بالعلم تعرف قيمة اليقين:

* ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤].
* ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩].

ويروى أبو الدرداء عن رسول الله قوله:

«من سلك طريقاً يبتغى فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض. وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب».

وهذا العلم يجعلك تفكر فى وجودك فى هذه الحياة، وفى الحياة نفسها وما فيها من مظاهر.. وأن وحدة الخلق تؤدى إلى الإيمان بوجود الخالق.

يقول تعالى فى سورة البقرة:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

هذه الآيات لها دلالاتها ومعانيها، عن السماء من فوقنا، والحياة وما يتعاقب عليها من ليل ونهار، والسفن التى تمخر عباب البخار وهذه الأمطار التى تحى موات الأرض، وتنبت الزرع، ولا يستغنى عنها كائن حى أليست هذه الآيات وغيرها التى تتحدث عن الموجودات والأفلاك، وأن كل الأمور تجرى بأقدار الله. وأن الإنسان

خلق بعد أن تهيأ الكون لاستقباله، فدوران الشمس والقمر.. تجعلنا نهتدى إلى التقويم الذى نعرف به أمسنا وغدنا ومستقبلنا كما يقول فى سورة يونس:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥].

بل يجعلنا - القرآن الكريم - نلم بحقيقة، وهى أنه لا حياة لشئ من إنسان أو حيوان أو نبات إلا بالماء.

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

ومن يرى هذا الوجود بتناسقه وجماله، وما فيه من وحدة الخلق، ثم لا يعرف أن وراء هذا الوجود البارئ الأعظم. ولا يهتدى للإيمان، وجلال الاستقرار القلبى، ينطبق عليه قوله تعالى:

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[الأعراف: ١٧٩].

وما أصدقه عليه الصلاة والسلام حين قال كما رواه مسلم:

«ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا».

* * *

ولكن ما هو الإيمان:

الإيمان أن تؤمن بأركان الإسلام الخمسة:

شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج وصوم رمضان.

هذه الأركان الخمسة هى دعائم الإسلام، فما دمت قد آمنت بالله وبخاتم رسله، وأقمت الصلاة التى تعرج بها فى اليوم بروحك إلى السماء خمس مرات.

وكان فى مالك حق للسائل والمسكين، وصمت رمضان، وقمت بالحج إلى البقاع الطاهرة إن كان فى استطاعتك ذلك، فقد تمكن الإيمان من قلبك، وأصبح للحياة طعم آخر. فأنت تعيش وأنت على ثقة بأن ما أتاك من خير فهو من الله.

وإذا أصابتك الخطوب والنوائب فهناك الصبر والمثوبة عند الله. عندئذ يتساوى أمام الإنسان كل شئ.

إذا جاءه الخير حمد الله، وإذا أصابه غير ذلك لم يجزع ولا تذهب بعقله الهموم والأحزان، وإذا تورط فى الإثم فالطريق ليس مسدوداً، هناك المغفرة وهناك الرحمة.

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

* * *

وأى طريق مسدود هذا الذى يحول بين الإنسان وبين الشعور بالسعادة، طالما أن طريق الإيمان مفروش بالأمل.. مفروش بالأمانى.

وإذا أخطأت فالله غفور رحيم.

* معنى هذا أن الإنسان عندما يخطئ ويتذكر جلال الله وعظمته، ويستحضر عفوه العظيم، يستيقظ ضميره، ويسلم قلبه من الشوائب، فيعزم على التوبة، وعلى سلوك طريق الله، فيتجنب أن يقع مرة أخرى فى المعاصى يقول جل علاه فى حديث قدسى رواه أنس بن مالك عن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام «يا ابن آدم.. إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك كل ما كان منك ولا أبالى، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتنى غفرت لك، يا ابن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى ولم تشرك بى شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة».

ويقول جل جلاله فى القرآن العظيم:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

* * *

الإيمان إذن حديقة رائعة الجمال.. تتطهر فيها الروح، وتسمو عن الدنايا، وترتفع إلى آفاق لا يشعر بها إلا الذين ذاقت قلوبهم حلاوة الإيمان.

وتروى كتب الأحاديث (البخارى ومسلم) ما روى عن عمر ابن الخطاب قوله:

«بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبى ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه وقال:

- يا محمد أخبرنى عن الإسلام:

فقال رسول الله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا.

قال: صدقت.

فعجبنا له يسأله ويصدقه.

قال: فاخبرنى عن الإيمان.

قال الرسول:

أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره.

قال: صدقت.

قال: فاخبرنى عن الإحسان؟

قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

قال: فاخبرنى عن الساعة؟

قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل.

قال: فاخبرنى عن أماراتها؟

قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاة الشاه يتطاولون فى البنيان.

ثم انطلق فلبث ملياً ثم قال:

- يا عمر أتدرى من السائل؟

- قال: الله ورسوله أعلم.

قال الرسول: إنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».

* * *

إن الذى يطمئن قلبه بالإيمان يعيش حياته وهو مطمئن بهذا الإيمان الذى يجعل لحياته معنى.. لأنه فى هذه الحياة سوف يحيا حياته وهو يعلم أنه سيرحل عنها إلى عالم الخلود.. حيث يجازى الإنسان بما قدمت يداه.. فإن فعل ما يوجب الجنة دخل الجنة بعمله وبرحمة ربه، وإن عمل ما يوجب النار، فسوف يلقى عقابه على ما قدمت يداه لأن الله تعالى هو العدل المطلق.

* * *

والإسلام يرسم صورة واضحة المعالم. . واضحة القسمات لما ينبغى أن يعرفه المسلم من العقائد التى نادى بها. . وبالتالى فهو يرسم للمسلم خريطة لهذه العقائد التى تجعله على علم بهذه الغيبيات التى حدثنا عنها. . ومن هذه العقائد الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. . فالإيمان بالله موجود بالفطرة فى أعماق كل منا. . منذ أن أشهد الناس على أنفسهم فى عالم الذر.

ورسله من البشر حتى يمكنهم أن يتفاهموا مع أممهم، ويبلغوها ما جاء به الوحى من أنباء الغيب والقيام بما أمر به الله سبحانه وتعالى، والابتعاد عما نهى عنه. . وهؤلاء الأنبياء جاءوا جميعاً برسالة واحدة. . هى رسالة التوحيد، وكان خاتمهم محمداً عليه الصلاة والسلام.

لقد عرف مجتمع مكة قبل الإسلام محمد بن عبد الله، عرفوا عنه الأمانة والطهارة والشرف. . لم يسجد لصنم قط، ولا خان الأمانة، ولم يقترف الرذائل، بل كان إنساناً نبيلاً. . فاضلاً. . حتى لقبوه بالأمين. .

ولم تعرف عنه مكة أنه كان يجيد القراءة والكتابة حتى يتهم بأنه قرأ الكتب السابقة ونقل عنها. . فقد كان الأمى الذى علم الدنيا كلها قيمة العلم والمعرفة.

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨، ٤٩].

ويأخذنا القرآن الكريم والذى أنزل على الرسول الخاتم ﷺ إلى عالم من الأنوار.. إنه يكشف لنا ما خفى علينا من أمور الغيب.

إنه يحدثنا عن الملائكة.. وأنهم مخلوقات الله.. لا تعصى أوامر الله.. وأن لهم مهام مختلفة.. هناك من يبلغ الوحى، وهناك من يقبض الأرواح، ومنهم من يثبت الله بهم قلوب رسله وأنبيائه والمؤمنين من عباده.. ولكن القرآن لا يحدثنا مما خلقوا، فإذا كان الإنسان قد خلق من الطين، والجن من النار، إلا أنه لم يذكر لنا مما خلق الملائكة.. ولكنه حدد وظائفهم.

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً﴾ [الإسراء: ٩٥].

ويقول عنهم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وجبريل عليه السلام هو الذى ينزل بالوحى على الأنبياء والرسل.

﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء : ١٩٢ - ١٩٤].

كما أن هناك من الملائكة من يبشر المؤمنين الذين عملوا صالحاً فى دنياهم بما ينتظرهم من جزاء فى الآخرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت : ٣٠].

وعن الذين يقبضون أرواح الناس عند الموت قال عنهم القرآن الكريم:

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل : ٣٢].

كما يحدثنا القرآن الكريم عن الملائكة من الكتبة، ويصف الملائكة بأنهم مخلوقات لا يدركهم العقل البشرى، ولكنهم موجودون.. ومهامهم حددها القرآن الكريم كما أسلفنا وهم كما يقول الله تعالى عنهم:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر : ١].

ويفسر هذه الآية ابن كثير بقوله: قال سفيان الثورى عن إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن ابن عباس رضى عنهما قال: كنت لا أدرى ما فاطر السماوات والأرض حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر.

فقال أحدهما لصاحبه أنا فطرتها أى بدأتها!

وقال ابن عباس رضى الله عنهما أيضاً: فاطر السماوات والأرض أى بديع السماوات والأرض.

وقال الضحاك: كل شئ فى القرآن فاطر السماوات والأرض فهو خالق السموات والأرض.

وقوله تعالى ﴿جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً﴾ أى بينه وبين أنبيائه﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾ أى يطيرون بها ليبلغوا ما أمروا به سريعاً ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾ أى منهم من له جناحان ومنهم من له ثلاثة ومنهم من له أربعة ومنهم من له أكثر من ذلك كما جاء فى الحديث أن رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام ليلة الإسراء وله ستمائة جناح بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب ولهذا قال جل علاه:

﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١].

* * *

ونمضى مع القرآن الكريم الذى يخبرنا عما لا نعرفه من أمور الغيب فيحدثنا عن عالم الجن، وأنهم مخلوقات الله، وأنهم خلقوا

من النار. . وأن منهم الخيرين والشريرين، وأنهم مكلفون بالإيمان بما جاء به رسل السماء، ومن يحيد منهم عن ذلك فيعذبه الله كالبشر تماماً يوم القيامة بما قدمت يداه.

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ [الأنعام: ١٢٨ - ١٣٠].

* * *

كما يحدثنا القرآن الكريم عن الروح الذى لا يعلم سرها إلا الله تعالى، ولكن لا حياة لإنسان إلا بها، فإذا ما عادرت الروح إلى الجسد انتهت حياة الإنسان.

ويقول لنا الشيخ محمود شلتوت فى كتابه الإسلام عقيدة وشريعة. . وهو يحدثنا عن عقائد الإسلام أما الروح التى بها حياة الإنسان، فلم يرد عنها فى القرآن الكريم سوى قوله تعالى:

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر: ٣٩].

وقوله: ﴿ فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ [الواقعة: ٨٣، ٨٤].

وغاية ما يدل عليه ذلك أنها شئ يبعثه الله فى جسم الإنسان فتكون به حياته، وإذا انتهى أجله خرج من جسمه فكان موته أما حقيقة ذلك الشئ فقد ترك القرآن بيانها. ومع ذلك فليس فى القرآن ما يمنع العلماء من البحث فى حقيقتها، شأن كل مجهول يحاول الإنسان أن يدركه سواء وصل إليه أم لم يصل.

وقد يفهم من قوله وتعالى:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥].

أن الروح مما استأثر الله بعلمه، وأنها ليست من عالم المادة التى يستطيع العقل البشرى أن يدرك حقيقتها لبحثه ونظره، ولكن المتأمل فى سابق الآية المذكورة، ولاحقها يرجع أن المراد بالروح فيها هو القرآن، وقد سماه الله روحاً.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

ويقول الإمام الأكبر:

والذى تدل عليه النصوص الواردة فى القرآن وأقوال الرسول، فيما يتعلق بالروح بعد الموت - أنها تبقى بعد الموت منعمة أو مهذبة.

﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠].

* * *

وإذا كان الشيخ محمود شلتوت لا يرى مانعاً أمام الإنسان من محاولة دراسة (الروح).. فنرى الآن بالفعل فى الشرق والغرب، من يحاولون ذلك.. وإن كانت الروح ستظل سراً.

فقد سئل ابن عباس:

- أين تذهب الأرواح عند مفارقة الأبدان؟

قال:

- أين يذهب ضوء المصباح عند فناء الأدهان.

قيل له:

- أين تذهب الجسوم إذا بليت؟

قال:

- فأين يذهب لحمها إذا مرضت؟

لقد أجاب ابن عباس عن علامات الاستفهام بعلامات استفهام.. وهذا يبرز العجز البشرى عن إدراك كنه الروح، وقد تحدث عن الروح وآمن بها الفراعنة، وفلاسفة اليونان، وفلاسفة المسلمين عبر كل العصور.. وفى الغرب الآن عن طريق البحوث الروحية يحاولون ذلك.

ويورد الدكتور عبد العزيز جادو فى كتابه عن (الروحية) هذه المحاولات.. وما أورده من هذه المحاولات قول وليام باريت عالم

الطبيعة الذى كان أستاذاً للفيزياء بكلية العلوم بجامعة (دبلن) وعضواً فى الجمعية الملكية فقد لخص نتائج بحوثه الطويلة الشاقة فى المجلد الرابع والثلاثين من مضابط جمعية البحث الروحى الصادر فى سنة ١٩٢٤ قائلاً:

«لقد ثبت أولاً وجود عالم روحى، وثانياً الحياة بعد الموت، وثالثاً إمكان الاتصال بهؤلاء الذين انتقلوا إلى هناك».

كما نجده يصرح أيضاً بقوله:

«إنى مقتنع تمام الاقتناع بالحقيقة الواقعة وهى أن أولئك الذين عاشوا على الأرض فى وقت من الأوقات يمكنهم الاتصال بنا بل هم فى الواقع متصلون بنا، وإنه من الصعب جداً أن نبدى للمتشككين غير المدربين أى فكرة كافية عن القوة العظيمة للواقع المجهول.

كما يورد قول العالم البريطانى الشهير (سير ألفرلودج) الذى كان من كبار علماء المادة وأصبح من أبرز أعلام العلم الروحى، وكان مديراً لجامعة برمنجهام، وعضو الجمعية الملكية لتقدم العلوم وهو من أقوى علماء الفيزياء فى القرن العشرين.

من أقواله فى إحدى خطبه:

« إن الإنسان لا يسود الكون، ولا يعرف أسراره، لكنه يتلمس فيه الحقائق تلمساً، وقد كُشفّ حديثاً الراديوم وغاز الأرجون وأشعة رنتجن، وبعض خواص الكهرباء، وقد بدأ الآن يعرف شيئاً عن بناء

الجوهرالفرد، وتظهر هذه الأمور كأنها جديدة، وهى غير جديدة، بل كانت موجودة أيضاً، ونحن لا نعرفها وفى الطبيعة أيضاً أمور كثيرة لم نكشفها حتى الآن».

إلى أن يقول فى نفس الخطبة:

« وليس من العقل أن يقال أن النفس تضمحل إذا تلف الجسد، بل سنظل موجودين بعد موتنا وانتهاء أعمارنا القصيرة على هذه الأرض، أقول ذلك مستنداً إلى أدلة علمية - أقوله لأنى تحققت أن بعض أصدقائى الذين ماتوا لا يزالون موجودين إذ أنا ناجيتهم. ومناجاة الموتى ممكنة لكن ينبغى أن نجرى على قواميسها، وأن نعرف شروطها، هى ليست من الأمور الهينة».

وهذا الذى يراه البعض غريباً، قال به علماء المسلمين مستندين إلى الكتاب والسنة.

فيورد لنا الدكتور عبد العزيز جادو قول شيخ الإسلام ابن تيمية:

«ومذهب سلف الأمة وأئمتها أن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة وتتصل به أحياناً ليحصل معها النعيم أو العذاب».

ويقول أيضاً:

«...واستطاعت الآثار بمعرفة الميت أهله وأحوال أهله وأصحابه فى الدنيا وأن ذلك يعرض عليه - وجاء فى الآثار أنه يرى

وأنه يدرى بما يفعل عنده فيسر بما كان حسناً، ويألم بما كان قبيحاً. . وتجتمع أرواح الموتى فينزل الأعلى إلى الأدنى لا العكس»!

ويورد أيضاً رأى الشيخ حسنين محمد مخلوف (مفتى الديار المصرية الأسبق) ما ذكره عن الأرواح:

ينبغى أن نعلم أن عالم الأرواح يختلف عن عالم المادة اختلافاً كثيراً فى أحواله وأطواره فالروح وهى من أمر الله تعالى يسلكها الله فى البدن فى الدنيا فتوجب له حساً وحركة علماً وإدراكاً ولذة وألماً ويسمى بذلك حيا. ثم تفارقه فى الوقت المقدر أزلاً لقطع علاقتها به فتبطل هذه الآثار ويفنى البدن ويصير جماداً، ويسمى عند ذلك ميتاً، ولكن الروح تبقى فى البرزخ.

وهو ما بين الحياة الدنيا والحياة الأخرى من يوم الموت إلى يوم البعث والنشور حية مدركة تسمع وتبصر وتسبح فى ملك الله حيث أراد وقدر وتتصل بالأرواح الأخرى وتناجيها وتأنس بها سواء أكانت أرواح أحياء أم أرواح أموات. . وتشعر بالنعيم والعذاب واللذة والألم حسب حالتها وعملها فى الحياة الدنيا، وترد أفنية القبور وتأوى إلى المنازل وهى فى كل ذلك لا يجدها مكان ولا يحصرها حيز. . إلى أن قال:

هذا هو مذهب أهل السنة وبه وردت الأحاديث والآثار. وقد ورد منها حديث سؤال القبر ونعيمه وعذابه، وأن المنعم والمعذب فيه

الروح والبدن معاً . . وحديث سماع الأرواح وإجابتها وحديث رد السلام على من سلم عليها واستقر رأى السلف على ذلك ولا عبرة لمن ينكره فإن شأن الأرواح يرقى ويسمو على مدارك المحجوبين بحجب المادة .

* * *

الإسلام إذن يفتح لنا بما يرسمه لنا من اعتقادات بالله وملائكته ورسله وكتبه والبعث والنشور . . وكل هذه الأمور من الغيبيات التى أوضحها لنا القرآن الكريم لنكون على بينة أن الحياة الدنيا . . حياة قصيرة . . ولكنها جسر إلى عالم الخلود . . وفى هذا العالم الآخر ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وأن كل ما فيها من نعيم أو عذاب لا نعرف كنهه وما جاء فى القرآن الكريم عنه هو تقريب لما سوف يحدث ونراه فى العالم الآخر . . بما يتلاءم مع مداركنا ومعارفنا على هذه الأرض . .

* * *


(٥)
مع القرآن
العظيم

ومادمنا فى واحة الإسلام. . حيث يستقر الإيمان فى القلب،

وحيث نعرف أمور ديننا بما بصرنا به من عقائد، وتشريعات فإن دليلنا والنور الذى يوضح لنا معالم الطريق، هو القرآن الكريم. .أنه دستور المسلمين. . بما جاء به عن البعث والخلود، بعد الموت، وانتهاء الحياة، وقراءته عبادة، وطمأنته للنفس. . يشعر قارئه بالجلال والجمال. . والخشوع. . فهو فى حضرة الله- جل علاه- تتنزل على قلب قارئه النفحات والهبات الربانية، التى يستشعرها من يقرؤه. . مستوعبا معانيه. . مستحضرا من أنزله، على آخر رسله عليه الصلاة والسلام.

* * *

وإذا لكل نبى من أنبياء الله معجزة حسية يراها الناس ليصدقوا أن صاحب هذه الرسالة مؤيد من الله تعالى. . فإن هذه المعجزات لم يرها إلا الذين عاصروها.

شاهد قوم إبراهيم عليه السلام إبراهيم وهو يلقى به فى النار فلاتحرقه بل تصبح برداً وسلاماً.

وشاهد قوم موسى عليه السلام موسى وهو يلقى عصاه فتتحول إلى ثعبان يلتهم ثعابين السحرة، ويدخل يده إلى جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء.

وشاهد قوم عيسى بن مريم عليه السلام عيسى وهو يحيى الموتى، ويشفى المرضى ويصنع طيرا من الطين فيحلق فى الفضاء بأمر الله.

وعلى كل هذه المعجزات.. فقد اتهم الناس أنبياءهم بالسحر، أو الجنون، وقابلوهم بالاستهزاء: ﴿**يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ**﴾ [يس: ٣٠].

وكانت معجزة الرسول الخاتم عليه الصلاة والسلام معجزة قائمة إلى يوم الدين.. متمثلة فى القرآن الكريم.. ولما كان العرب أهل بلاغة وفصاحة، فقد جاء القرآن الكريم بنفس كلمات العرب.. ونفس لغتهم.. ولكن صياغتها ومعانيها هو الإعجاز بعينه.. فلم يستطيعوا أن يأتوا بسورة من سوره أو آية من أياته، ولا استطاعوا أن يكتبوا مثله، أو يأتوا بشىء يماثله.. وهذا دليل على أن هذا القرآن من عند الله -جل علاه- وليس من نظم محمد عليه الصلاة والسلام.

فقد عرف الناس فى مكة محمدا أميا لا يقرأ ولا يكتب، فلا درس التاريخ، ولا قرأ عن الأديان السماوية التى سبقته- فكيف يأتى بما جاء فى الكتاب الكريم من أحوال الأمم السابقة؟ وقصصهم مع أنبيائهم؟ وما كانوا عليه من عبادات، وما كانوا عليه من عادات وتقاليد.

وكيف سادتهم الخرافات والأساطير، وعبادة الأصنام أو النجوم، أو الحجارة الصماء، أو عبادة ملوكهم كالفراعنة! . .كيف عرف الرسول كل ذلك إلا إذا كان ذلك وحيا من الله، وقد عرفوه وقد عاش بينهم أربعين عاما قبل أن ينزل عليه وحى السماء.

صحيح أنهم عرفوا فيه الشجاعة والعفة والطهارة، وجسارة القلب، والذكاء والأمانة، ولكن القرآن لم يكن من نظمه، فالفرق شاسع بين لغة القرآن الكريم ولغة الحديث، رغم فصاحة الرسول عليه الصلاة والسلام، وقد أوتى جوامع الكلمة، أو على حد تعبير القاضى عياض عندما يصف بلاغته عليه الصلاة والسلام فيقول:

فأما فصاحة اللسان وبلاغة القول، فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل، والموضوع الذى لا يجهل، سلامة طبع، وبراعة منزع، وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معان، وقلة تكلف، أوتى جوامع الكلم، وخص ببدائع الحكم، وعلم ألسنة العرب، فكان يخاطب كل أمة بلسانها، ويحاورها بلغتها، ويباريها فى منزع بلاغتها، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه فى موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله. . ومن تأمل حديثه وسيره علم ذلك وتحققه، وليس مع قريش والأنصار، وأهل الحجاز، ونجد حديثه مع وطيفة الهندى، وقطن بن حارثة العليمى، والأشعث ابن قيس، ووائل بن حجر الكندى وغيرهم من أقيال حمير، وملوك اليمن.

كان الرسول عليه الصلاة والسلام على علم بلهجات العرب، فقد تعلمها بذكائه الخارق من القادمين إلى مكة للحج من مختلف القبائل.

كان عليه الصلاة والسلام فصيحا.. تلك الفصاحة التى أوجزتها (أم معبد) التى رأته وهو فى طريق هجرته إلى المدينة، ووصفته لزوجها عندما حدثته عن هذا الرجل الذى جاءها مع صاحبه يطلب لبنا، فلما لم يجد إلا شاة هزيلة، حلبها فدرت اللبن، قالت عنه: «إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء، حلو المنطق، نصل لانزر ولاهذر، وكان منطقه خرزات نظم يتحدرن».

ومع كل هذه البلاغة والفصاحة.. فلغة القرآن شىء آخر.. شىء معجز.. مبهر.. تحدى العرب تحديا أخرسهم.. وقد وصفه الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

[يونس: ٣٧، ٣٨].

* * *

وبلاغة القرآن الكريم جعلت رجلا كالوليد بن المغيرة، يقر بأن هذا القرآن فوق مستوى البشر، قال ذلك وهو على شركه.. فقال عن القرآن الكريم:

«إن أعلاه لمورق وإن أسفله لمغدق، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وليس هذا من كلام البشر».

وهذا القرآن نفسه، هو الذى جعل أحد الأعراب الذى يعرف بفطرته جمال اللغة، وإعجاز البيان، هذا الأعرابى عندما سمع - كما قال أبو عبيدة - رجلا يقرأ: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾.

خر ساجدا قائلا:

سجدت لفصاحة هذا الكلام

* * *

والقرآن الكريم نزل على الرسول عليه الصلاة والسلام منجما على مدى رسالته التى امتدت منذ أوحى إليه لأول مرة فى غار حراء، ونزل قوله تعالى:

﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ - ٥].

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وقد نزلت هذه الآية فى التاسع من ذى الحجة، وبعدها لم يعش الرسول عليه الصلاة والسلام سوى إحدى وثمانين ليلة، وانتقل بعدها إلى الرفيق الأعلى، بعد أن نزل القرآن الكريم منجما على رسوله عليه الصلاة والسلام، قرآنا يتلى ويتعبد به، وقربى إلى الله عز وجل، وتشريع إلهى للبشر، فيه ما أحل الله وما حرم الله، وفيه أيضا ما يخص الناس من شرائع وعقائد وعبادات وقد نزل القرآن على مدى هذه السنوات الطويلة، ليحفظه الناس على مهل، ويتبينوا ما فيه من حكم وآيات، وليثبت به قلب الرسول عليه الصلاة والسلام فى الظروف التى مرت بها الدعوة:

﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ [الإسراء: ١٠٦].

* * *

والقرآن المكى (الذى نزل بمكة).. كان يحدث الناس عن الثواب والعقاب فى العالم الآخر.. وعن هذا اليوم الذى يقوم الناس فيه عند البعث، فيجازى كل بما قدمت يداه من خير أو شر، وعلى مدى قرابة تسعين سورة مكية، كان القرآن يبث فى الناس أهمية الإيمان بما جاء به النبى الخاتم عليه الصلاة والسلام، ويهيئ المسلم بكل الأسلحة التى تعينه على الصبر على مكائد أهل الشرك، وتتوعد الكافرين بما سوف يلقونه من عذاب يوم الحساب، وأيضاً يرد على حجج أهل الضلال، ويرد على مطالبهم غير المنطقية وغير المعقولة.. فقد طلبوا من الرسول.. أن يصعد إلى السماء ويروه رأى العين وهو يفعل ذلك، ويأتى بكتاب من الله، ويكون له بيت من زخرف.. إلى آخر المطالب التى عبر عنها القرآن الكريم بقوله:

﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣].

ولأن القرآن الكريم من لدن الله -عز وجل- والله خبير بالنفوس.. ويعرف الطبيعة البشرية عندما تعاند وتكابر.. إنها طبيعة الإنسان الواحدة الذى أنكر ما جاء به رسل السماء.. طالما أغلقوا عقولهم عن التفكير، وأصموا أذانهم عن معرفة الحقيقة..

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

* * *

فإذا ما تدبرنا السور المدينة(أربع وعشرون سورة) نرى هذه السور، فيها دستور المسلمين من عبادات وأحكام وتشريعات، وتنظيم شئون الحكم والعلاقة بين الأفراد بعضهم وبعض، ومع المجتمع، والحدود. . فإذا كان القرآن المكى فيه ترهيب وترغيب، وأهمية أن يعرف الناس ثواب الله وعقابه. . حتى يؤمنوا بما جاء به الدين الحنيف، فإن القرآن المدنى فيه تنظيم لحياة الناس والمجتمع. .

وسواء أكانت سور نزلت بمكة أو المدينة فإن هذه السور جميعا فيها الإعجاز والإبهار واللغة المستقيمة، والبلاغة التى تستعصى على البشر فقد جمع العرب على لسان واحد. . ولغة واحدة وإذا كانت آيات القرآن الكريم المنزلة على قلب الرسول عليه الصلاة والسلام تنزل حسب الحوادث والأحداث فإن ترتيبها فى السور كان بفعل جبريل عليه السلام، فترتيب الآيات والسور، كان كله بوحى وأمر من الله. .

﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٦، ١٧].

ومقاصد القرآن الكريم تدور حول نواح ثلاث كما يقول الشيخ محمود شلتوت فى كتابه(إلى القرآن الكريم):

- ناحية العقيدة.

- وناحية الأخلاق.

- وناحية الأحكام.

ويوضح ذلك بقوله:

فالعقائد: تطهر القلب من بذور الشرك والوثنية، وتربطه بمبدأ الروحية الصافية، وهى تشمل ما يجب الإيمان به فى جانب الله من صفات الجلال والكمال، وما يجب الإيمان به فى جانب الوحى والرسالات من الملائكة والكتب والنبيين، وما يجب الإيمان به فى جانب اليوم الآخر من البعث والجزاء:

والأخلاق: تهذب النفس وتزكيها، وترفع من شأن الفرد والجماعة، وتقوى عرى التآخى والتعاون بين بنى الإنسان وتشمل: الصدق، الصبر، والوفاء بالعهد، والحلم، والجود، والرحمة، وغيرها مما يحقق فى الإنسان ثمرة إيمانه بالله وصفاته التى يجب أن يكون عليها عباده.

أما الأحكام: فهى ما بينه الله فى كتابه أو بين أصوله من النظم التى يجب اتباعها فى تنظيم علاقة الإنسان بربه وعلاقته بأخيه الإنسان وتشمل:

أحكام الصلاة والزكاة، والصوم، والحج، واليمين، والنذر، وما إلى ذلك مما يدخل فى دائرة العبادات التى تغذى الإيمان، وتنمى ثمراته الطيبة، وتشمل أحكام الزواج، والطلاق وما يتبعها من مهر

ونفقة، ورضاعة، ونسب، وعدة، ووصية وإرث. . وما إلى ذلك مما يدخل فى دائرة الأحوال الشخصية أو أحكام الأسرة وتشمل: أحكام البيع والإجارة والرهن والمداينة. . وما إلى ذلك مما يدخل فى دائرة المعاملات المالية وتشمل: أحكام الجنايات والجرائم كالقتل، والسرقة، والإفساد فى الأرض، والزنا، والقذف. . وما إلى ذلك مما يدخل فى دائرة العقوبات وتشمل: أحكام الحرب والسلم وما يتبعها من غنائم وأسرى ومعاهدات، وما إلى ذلك مما يدخل فى دائرة الأحكام الدولية العامة. .

* * *

ولقد أوجز الدكتور محمد عبد المنعم القيعى الكلام عن القرآن الكريم، من خلال نظرة شاملة فقال: القرآن المقروء المكتوب فى المصاحف المبتدأ بسورة الفاتحة، المنتهى بسورة الناس: كلام الله عز وجل ووحيه أنزله على قلب نبيه محمد ﷺ من كفر بحرف منه فهو كافر قال تعالى:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣].

وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧].

وكل الصفات التى وصف بها القرآن ترجع لكونه قرآنا أى

جامعا على الحق، وفرقانا: أى مفرقا بين الحق والباطل، وقد وصف القرآن بالكرم، لأنه من أجل النعم، ووصف بالعظمة، نظرا لحقيقته الذاتية.. ووصف بالحكمة.. لأن العبد يترقى بالقرآن فيتجلى له الحق.. وهذا القرآن اسم للفظه ومعناه..

وكل ما فيه من خير عن نبى من الأنبياء، أو رسول أو عذاب أو نعيم أو غير ذلك فهو حق على ظاهرة لا رمز فى شىء منه.. قال تعالى:

﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨].

كما قال لنبيه:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وعليه: فالقرآن أصل الدين، والمصدر الأول له وتأتى بعد ذلك السنة، ثم الإجماع ، وما عدا هذه المصادر يستأنس بها: كالقياس والاستصحاب، والمصالح المرسلة، وأقوال الصحابة، وأعمالهم، والعرف وغير ذلك مما يرتضيه المسلمون المتفقون على ما يرضونه، ولا سر فى الدين عن أحد استأثر به عنده، وادعاء هذا زور وبهتان، وتقول بغير علم قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ

فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا﴾ [البقرة: ١٥٩].

وادعى فريق من الضالين المضلين أن النبى ﷺ قد اختص بعض أصحابه بأسرار لم يكشفها للجميع كعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه، وقد نفى هذا الإمام الورع تلك الدعوى المنسوبة إليه، والتى افتراها أعداء الإسلام عليه فنشر كرم الله وجهه على الملأ صحيفته وقال ما: عندنا شيء سوى ما كان عند المسلمين من بعض الأحكام الفقهية المتعلقة بالمدينة، وبعض أحكام القصاص، وفكاك الأسير، فلم يكن رضوان الله عليه عنده علم اختصه الرسول به.

أما ما أسر به النبى لحذيفة بن اليمان من أحوال بعض المنافقين فتلك أمور خاصة لا مصلحة للأمة أن تقف عليها. .

* * *

القرآن إذن هو غاية المسلمين ومبتغاهم، وقائدهم إلى حياة كريمة تتمثل فيها الأخلاق والتشريعات والعقائد التى بها يرتفع الإنسان إلى مستوى يليق بإنسانيته وكونه خليفة الله فى الأرض. .

أنه النور الذى يبيد ظلمات الجهل والجهالة والغباء ويحث الناس على أن ييمموا وجههم شطر العلم. .

العلم الدينى ليتفقه فى أمور دينه. .

والعلم المادى حتى يعرف الإنسان شيئا عن الكون الذى يعيش فيه والبيئة المحيطة به. .

والتمعن والخشوع عند تلاوة القرآن الكريم، تحمل الإنسان إلى استشراف عوالم الروح، تجعل الإنسان يعلو فوق ماديات الحياة، وتفاهات الوجود التى تتكالب عليها، فها هو رسول الله ﷺ، قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . .يسمع القرآن من ابن مسعود، حتى إذا بلغ قوله تعالى:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء : ٤١].

فيبكى الرسول الكريم، ويقول لابن مسعود: امسك. .لقد كان الرسول العظيم بروحانيته السامقة، يرى ما لا يراه الآخرون، فهو القائل لأصحابه:

«والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا. . أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون. . أطت السماء وحق لها أن تئط. .ما فيها موضع أربعة أصابع إلا فيها ملك ساجد لله». .

* * *

والقرآن الكريم وقد نزل على خاتم النبيين محمد عليه الصلاة والسلام. . وقد نزل منجما. . أى على فترات. . وحسب مناسبات مختلفة من هنا فقد فهم العرب سبب النزول، ولكن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام لم يفسر القرآن، ربما لأن تفسير القرآن يقتضى الانتهاء من نزوله لأن للقرآن عطاءه المستمر فى كل العصور، ومن

هنا فتح باب الاجتهاد لمن يستطيع الاستنباط من العلماء فى كل عصر، بما يتسق مع التقدم العلمى، فالقرآن الكريم لم تتناقض حقائقه مع الحقائق العلمية فى أى عصر من العصور. . وإذا اختلف مع بعض النظريات العملية فإن هذه النظريات سوف تكشف الأيام إنها لم تصل إلى مستوى الحقيقة. .

* * *

وقد سألوا الرسول عليه الصلاة والسلام مرة عن (الهلال). . وكيف يتحول عبر أيام الشهور إلى أن يكتمل فى منتصفه عندما يصبح بدرا، ثم يعود إلى التناقص. . وكان من الصعب على العرب وهم الذين لا يعرفون شيئا عن الفلك فى وقتها أن يحدثهم القرآن الكريم عن الأسباب العلمية وراء ظهور القمر بصور مختلفة عبر أيام الشهر العربى، ومن هنا فقد أجابهم عن الفوائد التى تعود على الناس من ذلك. . فقال جل علاه:

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٨٩].

ومن هنا فقد قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها. . «توفى رسول الله ﷺ ولم يفسر القرآن إلا كلمات تعد علمه إياهن جبريل». .

فحين نزل عليه قوله تعالى:

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ٩٩].

سأل النبى جبريل :

- ما العفو ياجبريل؟

فقال: «أن تعفو عمن ظلمك، وتعطى من حرمك وتصل من قطعك». .

ولما نزلت عليه آية براءة :

﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ ﴾ [التوبة: ٣].

قال رسول الله ﷺ لأصحابه :

يوم الحج الأكبر هو يوم عرفات . .

وقال ﷺ فى شرح لفظ (الأواه) فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴾ [هود: ٧٥].

الأواه : الخاشع المتضرع . .

والرسول عليه الصلاة والسلام لم يفسر القرآن لأنه لو فسره ما جرؤ أحد فى أى عصر من العصور أن يحيد عما قال به عليه الصلاة والسلام، ولأغلق باب الاجتهاد فى التفسير . .

والقرآن يبين أن الإنسان سوف يكتشف الكثير من عجائب كونه المفتوح، ويكتشف حقائق يجهلها عن نفسه التى بين جنبيه . . مع مرور السنين :

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

* * *

ومن هنا نرى الكثير من الصحابة قد أحجموا عن تفسير القرآن إلا بما علموه من الأحاديث التى تفسره غير أن هذا لا يعنى أن هناك حجرا على تفسير القرآن، بل لابد أن يكون المفسر لكتاب الله ملما باللغة، وبالظروف التى نزلت فيها الآية، والهدف من نزول هذه الآية، ويكون على علم أيضا بمعطيات اللغة، ويكون لديه الحس الدينى والفهم لأحاديث رسول الله ما يعينه على تفسير ما تيسر من آيات القرآن الكريم، لأن القرآن كما قال الإمام على بن أبى طالب: حمال أوجه. . أى أن عباراته تحمل أكثر من معنى. .

ولقد دعا الرسول عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عباس فقال:

«اللهم علمه الحكمة، اللهم فقهه فى الدين، وعلمه التأويل». .

وأصبح ابن عباس من أفقه علماء المسلمين وممن فتح الله عليهم بتفسير القرآن الكريم، وإذا كان بعض الصحابة قد غاب عنه ذلك فى أول الأمر، إلا أنهم سرعان ما أدركوا أن الله أكرمه وألهمه التفسير. . قال ابن عمر:

«كنت أقول: ما تعجبنى جرأة ابن عباس على تفسير القرآن فالآن قد علمت أنه أوتى علما صدقا» .

ومن تفسير ابن عباس عندما سأله بعض الناس عن معنى قوله تعالى:

﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وقد فسر ابن عباس هذه الآية بأن السماء والأرض كانتا متصلتين ببعضهما ثم فصل بينهما فرفع السماء ووضع الأرض.

* * *


(١)
القرآن
عطاء دائم

والقرآن الكريم آية من آيات الله.. لاتنقضى عجائبه.. وسيظل نور هداية لكل العصور إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، سيظل أيضاً يقدم عطاؤه لكل الأزمنة، ويرى فيه كل جيل من الأجيال، وكل قرن من القرون الجديدة الذى استغلق على من سبقهم.. إنه نبع لا ينضب أبداً..

الذين يبحثون فى العلوم الكونية رأوا أن ماكشفوا عنه فى علومهم ووصلوا فيه إلى حقائق لايتنافى أبداً مع ما جاء فى القرآن الكريم عندما أشار إلى هذا العلم.

فالقرآن الكريم مثلاً عندما نزل فى شبه الجزيرة العربية، لم يكن العرب يعرفون من وسائل المواصلات التى تيسر عليهم الانتقال من مكان إلى مكان إلا الخيول والجمال والبغال والحمير، وليس العرب وحدهم بل كل العالم حتى العالم المتقدم فى زمانهم مثل الفرس والروم لم يعرفا من وسائل المواصلات إلا هذه الحيوانات التى تسهل عليهم مشاق الحياة، بجانب تقدمهم الحضارى عندما استخدموا المركبات ذات العجلات التى تجرها الخيول فقطعوا المسافات الطويلة بأقل قدر من المشقة..

عندما يتعرض القرآن الكريم لمثل هذه الأمور المتعلقة بدنيا الناس، يحدث الناس عن هذه الوسائل الملائمة لهذا العصر، ثم يتحدث عن أمور سوف تستجد فى المستقبل.

يقول جل من قائل:

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

فالعرب وغيرهم فى عهد نزول القرآن عرفوا الخيل والبغال والحمير، وفى العصور الحديثة أُخترعت السيارات والطائرات. وهذا ماينطبق عليه قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾.

وقد تطورت وسائل المواصلات بعد ذلك الى أمور لم يصل إليها بعد، فينطبق عليها القول الكريم ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾.

فالعطاء متجدد لكل العصور بل إن القرآن عندما تحدث عن أمور غيبية فى عصر الرسول عليه الصلاة والسلام، أمور سوف تتحقق فى المستقبل تحققت بالفعل..

فعندما هزمت الروم من قبل الفرس، وكان الروم أهل كتاب على عكس الفرس الذين كانوا يقدسون النار، واغتم المسلمون لذلك، ونزل قوله تعالى:

﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٢ - ٤].

وتحقق ما وعد به القرآن الكريم فقد انتصر الروم بعد ذلك على الفرس.

* * *

فإذا ما توقفنا عند حديث القرآن الكريم عن كيفية خلق الإنسان منذ أن كان نطفة ومراحل تكوينه كجنين إلى اكتمال نموه.. فى الوقت الذى لم يعرف العالم يومها الأشعة والمناظير، التى يمكن أن تكشف عما يجرى فى ظلمات الرحم لوجدنا أن هذا القرآن الكريم من عند الله سبحانه وتعالى، وموحى به إلى هذا النبى الأمى الكريم الذى لم يدرس الطب، ولا دخل مدرسة ولا جامعة، ولا حتى كان يعرف القراءة والكتابة.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

ويقول الطبيب الفرنسى الشهير (موريس بوكاى) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم (دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة) وهو يتحدث عن تطور الجنين فى الرحم:

تطور الجنين فى الرحم كما يصفه القرآن يستجيب تماما لما نعرف اليوم عن بعض مراحل تطور الجنين، ولا يحتوى هذا الوصف على أى مقولة يستطيع العلم الحديث أن ينقدها. إذ يقول القرآن أن الجنين بعد مرحلة التشبث، وهو التعبير الذى رأينا إلى أى حد هو مؤسس على الحقيقة، يمر بمرحلة المضغة (أى اللحم الممضوغ) ثم يظهر بعد ذلك النسيج العظمى الذى يغلف باللحم ويعنى لحما نضراً».

﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا... ﴾ [المؤمنون: ١٤].

المضغة: تشير إلى ما يشبه اللحم الممضوغ، أما اللحم فيعنى اللحم النضر، ويستحق هذا التمييز الالتفات. إذ أن الجنين فى مرحلة أولى من تطوره كتلة صغيرة تبدو فعلاً للعين المجردة كلحم ممضوغ.. ويتطور الهيكل العظمى فى هذه الكتلة، وبعد أن تشكل العظام، تتغطى بالعضلات وعلى العضلات توافق كلمة لحم.

ويقول الطبيب الفرنسى متابعاً حديثه عن تكوين الجنين:

والمعروف إن بعض الأجزاء، فى أثناء مدة تطور الجنين، تبدو غير متناسبة مع ماسيكون عليه الفرد فى المستقبل على حين تظل أجزاء أخرى متناسبة.

ذلك هو معنى كلمة (مخلّق) هى تعنى مشكل. ينسب وقد جاءت فى الآية ٥ من سورة الحج لتشير إلى هذه الظاهرة!

﴿ ... فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ [الحج: ٥].

ويذكر القرآن أيضاً ظهور الحواس والأحشاء:

﴿ .. وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ .. ﴾ [السجدة: ٩].

ويشير أيضاً إلى تشكيل الجنس.

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٥، ٤٦].

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١]

﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ [القيامة: ٣٩].

وكما قلنا فلابد من مقارنة هذه المقولات القرآنية بالمعلومات التى ثبتت - فى العصر الحديث - توافق المقولات القرآنية مع المعلومات الحديثة يتضح، ولكن من المهم أيضاً مقابلتها بالمعتقدات العامة فى هذا الموضوع والتى كانت سائدة فى عصر تنزيل القرآن حتى يدرك إلى أى حد كان معاصرو هذه الفترة بعيدين عن حيازة معلومات تشبه تلك التى يعرضها القرآن فى هذه المسائل. وليس هناك أدنى شك فى أن هؤلاء المعاصرين لم يعرفوا فى ذلك العصر تفسير هذا الوحى مثلما ندركه نحن اليوم. ذلك أن معطيات المعرفة الحديثة تعيننا على تفسيره. الواقع أن المتخصصين لم يكتسبوا معرفة واضحة إلى حد ما عن هذه المسائل إلا خلال القرن التاسع عشر.

ويمضى موريس بوكاى يحدثنا عن تطور علم الأجنة حتى العصور الحديثة ثم يقول:

«عرف الناس القرآن بما يزيد على ألف عام قبل هذا العصر الذى كانت المعتقدات الوهمية تسوده.

إن مقولات القرآن عن التناسل البشرى تعبر فى ألفاظ بسيطة عن حقائق أولى أنفقت مئات من السنوات لمعرفتها».

* * *

وهذا الإعجاز الذى نراه فى القرآن الكريم وهو يحدثنا عن خلق الإنسان، نراه فى كل ما عرضه القرآن الكريم من مظاهر الوجود.. سواء فى الجبال أو السهول أو الأنهار أو البحار أو المحيطات، أو النجوم والكواكب فى المجرات.. أو على مستوى النفس البشرية.. عندما نستعرض ما قاله المتخصصون فى هذا المجال.. لانجد تناقضاً بين ماجاء به القرآن الكريم والحقائق العلمية.

وهذا ما حدى بالعديد من المفكرين الكبار فى العالم أن يقفوا مشدوهين، أمام عظمة صاحب هذه الرسالة، وعن هذا القرآن الكريم الذى جاء يحث على قراءة كتاب الكون، ومخلوقات الله، فى نفس الوقت الذى كان يدعو الناس إلى التوحيد الخالص، ونبذ عبادات تتنافى مع المنطق والعقل، بجانب مافيه من تشريعات وعقائد تنظم العلاقات بين الناس، بعضهم ببعض فى مختلف شئون الحياة وما ينبغى أن يكون عليه المسلم من قيم وفضائل وهو متسلح بما جاء به هذا النبى الكريم، وما أنزل عليه من وحى الله.

أو على حد تعبير موريس بوكاى فى نهاية كتابه «دراسة الكتب المقدسة على ضوء المعارف الحديثة»:

«ولايستطيع الإنسان تصور أن كثيراً من المقولات ذات السمة العلمية كانت من تأليف بشر وهذا بسبب حالة المعارف فى عصر محمد ﷺ، لذا فمن المشروع تماماً أن ينظر إلى القرآن على أنه تعبير الوحى من الله، وأن تعطى له مكانة خاصة جداً حيث أن صحته أمر لايمكن الشك فيه، وحيث أن احتواءه على المعطيات العلمية المدروسة فى عصرنا تبدو كأنها تتحدى أى تفسير وضعى، عقيمة حقاً المحاولات التى تسعى لإيجاد تفسير للقرآن بالاعتماد فقط على الاعتبارات المادية».

* * *

وإذا كان القرآن الكريم له عطاؤه -كما قلنا لكل عصر - فإن المفسرين من علماء الدين والفقهاء ورجال العلم حاولوا تفسير القرآن الكريم. .

البعض فسره تفسيراً لغوياً مكتفياً بالمعنى الظاهر.

والبعض الآخر حاول أن يفسره تفسيراً يحاول الوصول إلى الدلائل المختفية وراء الألفاظ والبعض الثالث حاول أن يفسره تفسيراً علمياً أى من خلال تفسير آياته على ضوء حقائق ماوصلت إليه العلوم فى عصره.

وقد كان ابن عباس رضى الله عنه يقول:

«إنى لآتى على آية من كتاب الله أفهمها فأودُّ أن المسلمين كلهم يعلمون منها مثل ما أعلم. .».

أى أن ابن عباس كان يهتدى ببصيرته إلى معانى غير مألوفة للناس.

وأذكر أننى كنت أحاور الشيخ محمد متولى الشعراوى عن الإعجاز فى القرآن، وعندما سألته عن المقولة الشهيرة التى تقول أن اللغة العربية تتكون من نثر وشعر وقرآن قال:

- المقولة صحيحة ولها أدلة.

الأدلة أن اللغة ويقصد منها لا القواعد وإنما يقصد منها الأثر الناشىء عن الجمال فى الأداء للمعانى على حسب هذه القواعد.

فحين يتكلمون عن الأدب يتكلمون عنه إما نظماً وإما نثراً. وزادوا على ذلك نثراً فنياً.

فلما أرادوا أن يأخذوا الآثار المنسوبة إلى العربية لكى يصنفوها، وجدوا أن القرآن كلام أدبى عال وراق. فأرادوا أن يدخلوه فى تصنيف معين.

هل هو نثر؟

هل هو شعر؟

فإذا أدخلوه فى النثر فهو ليس على طريقة النثر.

وإن أدخلوه فى الشعر فهو ليس على طريقة الشعر.

وإن أدخلوه فى السجع فهو بعيد عن ذلك أيضاً.

فقالوا: إن القرآن لايصح أن يدخل فى هذا التقسيم.. لماذا؟

لأننا نتحدث عن لغة البشر وآثارها الإنتاجية فى الأدب والبيان والتصوير، ولكن القرآن لغته أعلى من لغة البشر.. فيجب ألا تدخل فى تقاسيم البشر.

إذن فاللغة العربية عبارة عن

* قرآن وهو كلام الله.

* غير قرآن وهو كلام الناس. كلام الناس على مقتضى الإفصاح والإبداع والبيان. أعنى اللغة الفصيحة.

وإن كان الكلام هو لغة الحاجات فهو العامية. هذا الإبداع إما أن يكون له نغم منضبط نسميه شعرا، وإذا لم يكن له نغم منضبط نسميه مرسلاً ونثراً، فإن كان من الناس من يجيد الإتقان الجمالى من الشعر يصبح ذلك هو النثر الفنى.

* * *

وقارىء القرآن الكريم وتفاسيره سوف يقف ليتأمل قوله تعالى:

﴿هُوَ الَّذى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

فما هو المحكم وماهو المتشابه؟

فى التفسير الوسيط للقرآن الكريم نقرأ رأى للدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر الذى يستعرض فيه آراء المفسرين، ووجهة نظرهم فيقول:

قوله تعالى: ﴿مُّحْكَمَاتٌ﴾ من الإحكام بكسر الهمزة، وهذه المادة تستعمل فى اللغة لمعان متعددة، ترجع إلى شىء واحد هو المنع يقال: أحكمه عن الشىء أى أرجعه عنه ومنعه منه. ويقال حكم نفسه وحكم الناس، أى منع نفسه ومنع الناس عما لايليق. ويقال أحكم الفرس أى جعل له حكمة تمنعه من الجموح والاضطراب.

وقوله ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أى أصله الذى فيه عماد الدين وفرائضه وحدوده ومايحتاج إليه الناس فى دنياهم وآخرتهم.. وأم كل شىء: أصله وعماده.

قال ابن جرير: والعرب تسمى الأمر الجامع لمعظم الشىء أمًّا له، يسمون راية القوم التى تجمعهم فى العساكر أمهم، ويسمون المدبر لمعظم أمر البلدة والقرية أمها.

وقوله ﴿مُتَشَابِهَاتٌ﴾ من التشابه بمعنى أن يكون أحد الشيئين متشابهاً للآخر ومماثلاً ومشاكلاً له مشاكله تؤدى إلى الالتباس غالباً. قال: أمور مشتبه ومشبهة -كمعظمة- أى مشكلة ويقال: شبه عليه الأمر تشبهاً: لبس عليه.

ولقد جاء فى القرآن مايدل على أنه كله محكم فى قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ [هود: ١].

وجاء فيه مايدل على أنه كله متشابه كما فى قوله تعالى:

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا﴾ [الزمر: ٢٣].

وجاء فيه مايدل على أن بعضه متشابه كما فى الآية التى نحن بصدد تفسيرها. ولاتعارض بين هذه الإطلاقات الثلاثة، لأن معنى إحكامه كله أنه متقن متين لايتطرق إليه خلل أو اضطراب.

ومعنى كونه كله متشابهاً أنه يشبه بعضه بعضاً فى بلاغته وفصاحته وإعجازه وهدايته.

ومعنى أن بعضه محكم وبعضه متشابه، فسنبينه بعد سرد بعض الأقوال التى قالها العلماء فى تحديد معنى كل منهما.

فمنهم من يرى أن المحكم هو الواضح الدلالة الذى لايحتمل النسخ، والمتشابه هو الخفى الذى لايدرك معناه وهو ما استأثر الله بعلمه كقيام الساعة والروح.

ومنهم من يرى أن المحكم ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان والمتشابه هو الذى لايستقل بنفسه، بل يحتاج إلى بيان، فتارة يبين بكذا، وتارة يبين بكذا، لحصول الاختلاف فى تأويله.

ومنهم من يرى أن المحكم هو الذى لايحتمل فى تأويله إلا وجهاً واحداً، والمتشابه هو الذى يحتمل أوجهاً. ومنهم من يرى أن المحكم ماكانت دلالته غير راجحة، وهو المجمل والمؤول والمشكل.. هذه بعض الأقوال فى تحديد المحكم والمتشابه، وقد اختار كثير من المحققين هذا القول الأخير.

* * *

ويقول الدكتور محمد عبدالمنعم القيعى الذى كان أستاذاً ورئيساً لقسم التفسير بكلية أصول الدين عن المتشابه فى القرآن الكريم أن فى القرآن الكريم ألفاظ متشابهات لايعلم حقيقتها إلا الله يتعين الإيمان بها، وإثباتها لله كما نسبها لنفسه على مايليق به: مثل:

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وقوله ﴿يَدُ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٦٤]. وقوله ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]. وقوله ﴿بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧]. وقوله: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١]. وقوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]. وقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧]. وقوله: ﴿يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]. وقوله: ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧].

وفى الأحاديث ألفاظ من هذا القبيل، مثل قدم الجبار، ونحو ذلك والأسلم: إثباتها كما أثبتها الله على مايليق بذاته المقدسة، وقد ظهرت فرق تعددت آراؤها بين مشبهة، ومؤولة، ومعطلة، ومفوضة، وممسكة عن الخوض فيها.

وأغلب هذه الآراء طرأت على المسلمين بعد اختلاطهم بغيرهم من أصحاب الأفكار الفلسفية، والطقوس الدينية، والنصوص الإسلامية مقدسة أكمل تقديس، ولايساغ صرفها عن ظاهرها وتأويلها إلا بشروط اشترطها علماء الإسلام واتفقوا عليها. ولابد من معرفة أى النصوص التى تؤول والتى لاتؤول، كما لابد من تحديد المعنى المراد من التأويل فإن اللفظ المشترك لكل معنى منه حد يميزها.

والتأويل مشترك بين التفسير وبين مايؤول إليه الشىء وينتهى وبين حرف اللفظ عن معناه الظاهر الراجح لغة إلى المعنى المرجوح.

ومن ذلك المتشابه رؤية المؤمنين لربهم فى الآخرة كما قال:

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢].

وفى الحديث أن النبى ﷺ نظر إلى القمر وقال:

إنكم سترون ربكم كما ترون هذا لاتضامون فى رؤيته.

وأما الكفار فقال الله عنهم:

﴿ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين: ١٥].

ومن ذلك المتشابه: أن الله تعالى كلم موسى عليه السلام ومن شاء من رسله.

قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

وقال لموسى:

﴿إِنِّى اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِى وَبِكَلامِى﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وقال:

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

ومن ذلك قوله:

﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء: ١٦٥].

وفى الحديث أن محمداً ﷺ خليل الرحمن.. كذلك وللمعتزلة رأى خاص فى هذه المتشابهات، فحكموا بامتناع الرؤية عقلاً لهذه الحواس، وأوّلوا كلام الله بأنه أوجده فى ذات ماتكلم به لا أنه تعالى متصف بالتكلم، وكذلك أولوا الخُلة مع التسليم بالنص والإيمان به.

ويرى الدكتور القيعي أن كل من سلم بالنص وآمن به فإنه لم يخرج عن الإسلام وإن أوَّله تأويلا يغاير الظاهر فكل من كان كذلك فإنه يُقنع، ولايرمى بالكفر، فليس كل من خالف الحق يكفر كما كفر الفرق بعضهم بعضاً.. والصحيح أنه لايكفر إلا من جحد معلوماً عُلم عن الدين بالضرورة.

* * *

ونحن هنا لانتحدث عن إعجاز القرآن الكريم كآية من آيات الله تفصح عن صدق الرسول ﷺ وماجاء به من تعاليم، ولكن نقف مجرد وقفة أمامه.. وأمام إعجازه، حتى نوقن أنه من عند العزيز الحميد.

والعجيب أن من يقرأ القرآن الكريم ويتدبره يجد فيه حلاوة وطلاوة كما قال عنه الوليد بن المغيرة، عند سماعه له، فما بالك عندما يقرأه المؤمن، إن الخشوع يشده إلى الدخول فى عالمه، والدخول فى عالم القرآن الكريم يضفى على قارئه فتوحات وفيوضات روحية لايحسها إلا من يدخل فى هذه التجربة.. إن الروح تشف، والوجدان يشف، فيضىء القرآن الكريم جوانب الإنسان، حتى أنه يشعر بمشاعر لايستطيع المرء أن يجسدها، وقد نرى ذلك فيما عبر عنه أهل الله من الصوفية، عندما قال أحدهم.

- نحن فى نعمة لو عرفها الملوك لحاربونا عليها!

إن هذا الصوفى يشعر بشفافية روحه، وبهذا الحس المرهف الذى أصقله كتاب الله فيه، يشعر هذا الصوفى أنه يعيش لحظات سعادة لاتوصف، حتى أن الملوك يغبطونهم عليها، لو تذوقوا ماهم فيه من سعادة الوجد عند تخلص الروح من شوائب المادة، وهى تعلو إلى سماوات بالغة السمو، بفضل انجذابهم إلى هدى الرحمن، عندما يتلون كتاب الله، وعندما يعيشون لحظات الأنس بالنور الأسنى.

﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

القرآن الكريم يأخذ بيد المؤمن إلى طريق الهدى والرشاد.. يزيل غشاوة الجهل والجهالة عن عينيه، وينير له طريق الحياة، ويكون رفيقه عندما تنتهى رحلة العمر..

وصدق رسول الله ﷺ حين قال:

«إن هذا القرآن مأدبة الله فى الأرض فتعلموا من مأدبته ما استطعتم».

وقال أيضاً:

«إن هذا القرآن حبل الله المتين، وانه هو النور المبين، والشفاء النافع عصمة من تمسك به، ونجاة من اتبعه، لايعوج فيقوم، ولايزيغ فيستعتب، ولاتنقضى عجائبه، ولايخلق عن كثرة الرد، فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته، بكل حرف عشر حسنات، ألا وإن أصفر البيوت من الخير، البيت الصفر من كتاب الله».

* * *

القرآن نور يتسلل إلى قلب المؤمن فيضىء جوانبه.. ومن يقرأه بتمعن وخشوع، يفتح الله عليه بفتوحات لايشعر بها إلا هذا المتدبر لكلام الله.. الخاشع لأوامره.. المبعد نفسه عما حرمه، ويشعر المعانى التى قد تخفى من ظاهر النص القرآنى.. ومن هنا قالوا: أن للقرآن ظاهراً وباطناً.

الظاهر: هو المعنى المباشر لكلمات الله كما نفهمها من خلال اللغة.

والباطن: هو المعنى الذى يمكن أن يتأوله القارىء، عندما يقرأ آيات الله تتلى، فيرى فيه غير ظاهرة..

فمثلاً عندما نزل قوله تعالى:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

نما إلى حدس عمر بن الخطاب أن هذه الآية تنعى رسول الله ﷺ، فماذا بعد اكتمال الدين، إلا النقصان، وأن الرسول ﷺ قد أدى الرسالة، وبالتالى اقترب الرحيل.

ولقد صدق حدس عمر، فلم يمر إلا واحداً وثمانين يوماً إلا ورحل أعظم رسل الله إلى جوار ربه الكريم والرسول عليه الصلاة والسلام قال من الأحاديث مايعنى أن القرآن له معنى ظاهر وآخر باطن، وذلك ماروى عنه الحسن البصرى أن رسول الله ﷺ قال:

«ما أنزل الله آية إلا ولها ظهر وبطن».

ولكن ليس معنى ذلك أن نؤول القرآن هذا التأويل المفرط فى التأويل والبعيد عن العقل والمنطق، وصرف الكلمات إلى غير معناها، كما يدعى البعض.. أو على حد تعبير الشيخ أحمد حسن الباقورى وهو يحدثنا عن (القرآن بين الظاهر والباطن).

«. . . غير أن من الحق علينا أن نلفتك إلى ما لفتنا إليه أسلافنا الصالحون، من أن الملاحدة وأهل الأهواء حاولوا أن يستغلوا هذا المعنى فى القرآن الكريم لفظاً بلا معنى، أو جسماً بلا روح، فذلك حيث قالوا فى تأويل الآية:

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٦]. أن المراد، أن الإمام من آل البيت ورث النبى، فجعلوا داوود هو النبى، وجعلوا سليمان هو الإمام من آل البيت، وجعلوا هذا الإمام وارثاً علم رسول الله.

وذكروا فى تأويل اليتيم، أنه الآخذ من المأذون له، إلى أن يظهر الداعى أو الإمام فيؤخذ عنه، وفسروا الصيام فى القرآن بأنه كتمان أسرار الدعوة الباطنية والإمساك عن الكشف عنها والإذاعة بأسرارها، وفسروا الكعبة بأنها النبى، والباب بأنه على، وفسروا الصفا -أيضاً- والمروة بأنها على، وفسروا التلبية فى الحج، بأنها إجابة الداعى إلى الإمام من آل البيت، وفسروا الطواف سبعا، بأنه الطواف بمحمد إلى تمام الأئمة السبعة، وفسروا نار إبراهيم بأنها غضب النمرود عليه، فليست هى ناراً حقيقية، وفسروا عصا موسى بأنها حجته وآيته التى لقفت شبه سحرة فرعون، وفسروا المن فى القرآن بأنه علم نزل من السماء، كما فسروا السلوى بأنها داع من الدعاة إلى المذهب، وفسروا تسبيح الجبال بالرجال الشداد فى الدين، والجن الذى ملكهم سليمان، بأنهم باطنية ذلك الزمان، وأما

الشياطين فهم الظاهرية الذين يأخذون بظواهر القرآن، وفسروا الآية: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤]. فذكروا أن المراد بفرعون هو القلب.. وراجع فى هذا الباب كتاب (الأدلة للشاطبى) وكتاب (الشكر) لحجة الإسلام الإمام الغزالى».

.. وهذا التعسف فى التأويل مرفوض..

فليس القرآن الكريم كتاب ألغاز وأحاجى.

ولكنه كتاب واضح المعانى.. رائع الأسلوب، قوى البيان، فيه كل مايجب على المؤمن أن يعرفه من أمور دينه ودنياه.. فقد تحدث عن العبادات والمواريث والاعتقاد، وفسر الرسول عليه الصلاة والسلام للناس ماغمض عليهم من أمور، وعلمهم الرسول الكريم: كيف تقام الصلاة.. وكيف تؤدى الزكاة، وطريقة الصوم وأداؤه ومبطلاته، وكيف تؤدى نسك الحج..!

وعرف المسلمون الأوائل أمور دينهم.. لأن الإسلام هو دين الفطرة..

بسيط للغاية..

سهل للغاية..

لا مشقة فيه ولا تطرف.. إنه دين الوسط.. والوسطية هى أهم مايميز الإسلام.. فلا عقد ولا طلاسم فيه.. ولاتعصب.. فهو دين الاعتدال.. حتى فى المأكل.. والمشرب.. لا فى العبادات فقط.

والرسول الكريم يقول: «خير الأمور أوسطها».

وبالتالى فإن التعنت فى التأويل القرآنى، ما ترفضه الفطرة السليمة.

كتاب الله معجز.. وآية من آيات الله.

إنه رفيق الإنسان فى دنياه.. يرشده إلى ماينبغى أن يكون عليه الإنسان حتى يحقق إنسانيته، وهو مرشد الجماعات والأمم، بما سنَّه من تشريعات فى العلاقات الدولية.. إنه نور هداية إلى يوم الدين.

﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

ويكفى أن الله سبحانه وتعالى تكفل بحفظه فلم ولن يتغير فيه شىء مما أنزل الله، كما حدث للكتب التى سبقته:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وهذا الكتاب الكريم الذى فيه رسالة الله إلى الناس، حتى يعرفوا أمور دينهم ودنياهم، ويكون منهاج حياة، ودليل لما ينبغى أن يعرفه الإنسان حتى يعبر رحلة العمر ويواصل رحلته بعد الوفاة بنور من الله.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٦)﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

ويقول تعالى:

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾ [الإسراء: ٩].

وعلينا كما يقول الرسول الكريم أن نتعلم من هذا القرآن.

فقد قال:

«إن هذا القرآن مأدبة الله فى الأرض فتعلموا من مأدبته».

* * *


(٧)
القصص
القرآني

القرآن الكريم ملىء بالقصص . .

هناك القصص التى تصور كيف خلق الله آدم عليه السلام من تراب، وكيف خلق من ضلعه حواء، وكيف عصى الشيطان ربه، لتبدأ غوايته للإنسان، وكيف نزل آدم وحواء من الجنة إلى الدنيا، لتبدأ الحياة، وتمضى مسيرة الإنسانية كما سنها الله فى كونه. . وأصبح الإنسان فى حياته مخيرا بإرادته بأن يسير فى طريق الهدى والصلاح، أو فى طريق الضلال والفساد . . إنسان له إرادة . . وله حرية . . وله عقل . . وله ضمير . . وله غرائز . . إنسان من مادة وروح . . المادة تشده إلى الأرض والروح تجذبه إلى السماء

كائن عجيب جاء إلى الدنيا مزود بكل ما يدفع به إلى الخير أو الشر . . الهدى أو الضلال . . الهداية أو الغواية . . ووسط تيه هذه الحياة عليه أن يختار بعد أن تحمل الأمانة أن يسلك الطريق الذى يؤدى به إلى الجنة أو الطريق الذى يذهب به إلى النار، عندما تنتهى وتبدأ الحياة الخالدة فى الآخرة.

ونرى القرآن الكريم يقص على نبيه الكريم بجانب قصة خلق الكون، وخلق آدم، وغواية الشيطان، يحدثه عن قصص الأنبياء الذين سبقوه مع أقوامهم. . وما لاقوه من عنت وتكذيب وتعذيب يفوق الطاقة البشرية. . فقد حدثه القرآن عن نوح وإبراهيم وموسى وداود وسليمان وعيسى، كما حدثه عن شعيب ولوط وإسماعيل وغيرهم من الرسل والأنبياء.

وهو فى هذه القصص يرى الرسول كيف قاوم الناس رسل الله ودعواتهم، كما تفعل مكة، وأن عليه بجانب أن يعرف سير حياة الأنبياء والرسل من قبله، أن النصر فى النهاية كان حليفهم، وأن النصر سوف يكون حليفه مهما اشتد طغيان مكة وغيها، ومهما فعل المشركون به وبالدعوة.. فالنهاية سوف تكون فى صالح الإسلام والمسلمين، وأن الإسلام سوف ينتصر مهما كانت عقبات الطريق.

فهى قصص للعلم بأحوال الأمم والشعوب السابقة مع الإسلام وتسلية للرسول، وبأن يتأسى بالذين سبقوه، وأن عقلية الإنسان واحدة فى كل العصور.. فهم يطلبون المعجزات فإذا تحققت سخروا منها وقالوا إنها سحر!!

حدث هذا مع نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من أنبياء الله..!

فليس غريبا عن أهل مكة أن يكذبوه، وأن يتهموه بالسحر حيناً، وبالكهانة حيناً آخر، ويرموه بالجنون فى أحيان أخرى.. رغم أنه عاش بينهم قبل الرسالة أربعين عاماً.. لم يعرفوا عنه أنه كاهن أو ساحر أو مجنون، ولا حتى شاعر!

إن الإنسان فى كل زمان ومكان الذى ينكر الجديد، ويعيش على تقاليد الأباء والأجداد رغم أنه يعلم يقينا أن هذه التقاليد لا سند لها من منطق ولا عقل فإذا قلت لهم أن هذه الأصنام لاتفكر ولا تنفع

ولاتضر، والذى صنعها وعبدها هو الإنسان نفسه، قالوا لك كما يقول القرآن: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ [الزمر: ٣].

فهم يقرون بالفطرة أن الله هو الموجود الأسمى، والخالق العظيم، ولكنهم يشركون معه حجارة بكماء صماء عمياء . . فإذا ما جاء الرسول ليقول لهم: عودوا إلى الفطرة . . عودوا إلى الإيمان . . تمسكوا بما يجيء به وحى السماء، أعرضوا عن كل ذلك، عادوا إلى نفس ما كان يردده الإنسان القديم من للرسل التى سبقت أعظم رسل السماء، وطالبوه بالمعجزات، ومن ذلك ما عبر عنه القرآن الكريم بكلمات معبرة فى غاية الإبهار فى سورة الإسراء:

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣].

إنهم يطلبون من أعظم رسل السماء لكى يؤمنوا بما جاء به من وحى، إلا بعد أن يفجر لهم من الأرض ينبوعاً، وأن يكون له حديقة مليئة بالنخيل والعنب، حيث يجرى فيها الأنهار أو ينزل عليهم العذاب من السماء، أو يأتى بالله والملائكة!! أو يكون له بيتاً من ذهب! أو يصعد إلى السماء ويأتى معه بكتاب من السماء!!

هذه المطالب التى صورها القرآن الكريم بكلماته القليلة المعجزة، يقصها القرآن ويقول لرسول الله أنه بشر يوحى إليه!

لقد قص القرآن قصص من سبق الرسول من الأنبياء فلا يأبه بمطالبهم العجيبة، ولا مطالبهم العسيرة، وألا يأخذ مطالبهم هذه مما يزيد همومه وأحزانه، وهو يبلغ إلى الناس تعاليم السماء، فالله معه.. يقف بجانبه.. وسوف ينتصر وأن عليه أن يواصل دعوته بلا يأس متزرعا بالصبر.

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وحتى عندما كان يتحرج الرسول عليه الصلاة والسلام من كثرة مطالب المشركين، ويرى فى نفسه حرجا من هذه المطالب التى لاتتفق مع عقل أو منطق، كان القرآن الكريم يثبت قلب الرسول عليه الصلاة والسلام، بما ينزل عليه من آيات القرآن الكريم حتى لا يفتن.

﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣) وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً (٧٤) إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾ [الأسراء ٧٣ - ٧٥].

وإذا كانت قصص القرآن تحملنا إلى عوالم الرسل والأنبياء، وما لاقوه من أقوامهم، وما كانت عليه هذه الأقوام من عادات وعبادات، وما كان يجرى فى هذه المجتمعات من رؤى ونظرات إلى الحياة، وتجعلنا نعيش مختلف العصور، وكيف تطورت هذه المجتمعات بفضل رسالات السماء، فإن هذه القصص أيضا تجعلنا نشعر بدورنا فى هذه الحياة، وأن الحياة نفسها قصيرة، وأننا يجب أن ننظر إليها كمجرد جسر للعالم الآخر.. حيث يجازى كل إنسان بما كسبت يداه.. فنحن نرى فى قصص القرآن الكريم تناول العديد من المضمونات.

مضمون يحكى قصص أنبياء الله متفرقة فى سور القرآن المختلفة، منها ما نزل فى مكة، ومنها ما نزل فى المدنية.. ما نزل فى مكة من قصص يقص علينا ما أنزله الله من عقاب على من خالف وحارب رسالات الله كعاد وثمود وأهل مدين.

نتيجة لأنه كان يسكن بالمدنية اليهود، واليهود كانوا أهل كتاب، ومن هنا فقد حدثهم القرآن المدنى، عن أنبياء وبنى إسرائيل، وموقف بنى إسرائيل من موسى عليه السلام، وتمردهم على أنبيائهم رغم ما رأوا من معجزات هؤلاء الأنبياء. كما كان يذكرهم بسند الله لهم عندما شرع الجهاد، وجابهوا أهل الشرك فى معارك الرسول عليه الصلاة والسلام، فكان القرآن يثبت قلوب المؤمنين، ويعدهم بالنصر.. كما نرى مثلا عندما يحدثنا القرآن كيف أيد الله رسوله والمؤمنين بالملائكة فى معركة (بدر)..

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾
[الأنفال: ١٧].

وعندما حدثت موقعة (أحد) . . وهزم المسلمين لأنهم خالفوا أمر الرسول عندما ترك الرفاق أماكنهم وذهبوا نحو الغنائم، وكانت فرصة الالتفاف حولهم من قبل خالد بن الوليد الذى كان ما يزال على شركه واختل ميزان المعركة التى كانت فى صالح المسلمين فى أول الأمر إلى صالح المشركين، ولولا دفاع المؤمنين المستميت عن الرسول عليه الصلاة والسلام، والاستبسال الهائل لتغير ميزان المعركة لصالح المشركين فقد آثر المشركون الانسحاب خوفا من أن يتحول النصر إلى هزيمة على يد المسلمين الذين تكتلوا حول الرسول الكريم. . ونزلت الآيات الكريمة من سورة آل عمران. . توضح للناس أهمية تنفيذ أوامر الرسول، والتمسك بما يقوله لهم، وأن يأخذوا عبرة مما حدث لهم فى أحد، مع فتح باب الأمل أمامهم للانتصار فى المعارك القادمة:

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾
[آل عمران : ١٤٠].

ويرسم لنا القرآن الكريم صورة رائعة لهؤلاء الذين استشهدوا فى سبيل العقيدة.

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠].

وتمضى مع كتاب الله فى قصصه.. وهو يؤازر المؤمنين، ويحضهم على الوقوف بجانب الرسول الكريم، والنضال عن العقيدة، والاعتبار بقصص الأمم السابقة، فنراه يرسم لوحة رائعة البيان عن غزوة الأحزاب، يوم تألب اليهود وقريش وبعض القبائل على حصار النبى ﷺ وصحبه فى المدينة، بعد أن وجدوا أن الرسول قد حفر خندقا حول المدينة بمشورة سليمان الفارسى، وكانوا قد قرروا القضاء على الإسلام نهائياً.. ولكن الله فرق جماعتهم، وخيب ظنهم، وهبت عليهم ريح عاتية فرقت شملهم، وقبل ذلك كان الأحزاب قد اختلفوا مع اليهود.. ويروى الرواة أن أبا سفيان عندما شاهد الريح التى تعصف بمعسكر المشركين، قال:

«يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار تقام، لقد هلك الخُفُّ والحافر، واخلفتنا قريظة ما وعدتنا، وبلغنا عنا ما نكره، ولقينا من هذه الريح ما ترون.

والله ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فإنى مرتحل».

وعندما علم الرسول عليه الصلاة والسلام برحيلهم قال:

«لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، فلا شيء بعده»..

* * *

والقرآن الكريم يصور ذلك بقوله فى سور الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ... إلى الآية ٢٧ من هذه السورة والتى تقول:

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

وهكذا نرى الإعجاز فى القصص القرآنى.. إعجاز فى الإيجاز.. وإعجاز فى رسم الأهداف من القصة، وإعجاز فى تسلسل ورسم الأحداث.. ولا مقارنة بين القصص القرآنى، من القصص الروائى الحديث الذى يرسم الشخصيات والأحداث من خلال قالب فنى يختلف من مدرسة أدبية إلى أخرى، وفى محاولة لجذب القارىء عن طريق الشخوص حيناً، والإبهام حيناً آخر، وعن طريق الرمز فى أحيان أخرى.. وفى محاولة لجذب القارىء إلى أحداث هذه القصص التى يبرز فيها المؤلف رؤياه للحياة من خلال تجاربه وثقافته وقدرته على القص.

وإذا كانت القصص والروايات قد تطورت فى شكلها ومضمونها حسب الاتجاهات والمذاهب، فإن القصص القرآنى غير ذلك تماماً.. القصص القرآنى يحدثنا عن واقع مرت به البشرية.

ويحدثنا عن أحداث وقعت للأنبياء والمرسلين، وكيف سارت هذه الدعوات فى طريقها رغم اعتراض المغرضين، وتربص المتربصين.. كما يحدثنا القصص القرآنى عن التواريخ الإنسانية وصراع الخير والشر كما فى قصة يوسف عليه السلام.. فيوسف تعرض لإغراء امرأة العزيز، وفضل السجن على أن يقترف الزنا، ويخون سيده، والسجن كان وسيلة الوصول إلى ملك البلاد ليفسر له رؤياه، وأتاح له ذلك أن يكون على خزائن الأرض، وأن يتعرف

على إخوته عندما جاءوا إلى مصر طلبا للغلال، وأن يتعرفوا عليه، وتتحقق رؤياه عندما رأى فى طفولته أحد عشر كوكبا والشمس والقمر يسجدون له، فقد جاء بأبيه يعقوب وإخوته ليعيشون معه بمصر. قصة متماسكة البناء.. تنفذ إلى أعماق القلب والعقل وهى تصور لهفة الأب على ابنه، وغيرة الأخوات من الأخ الذى يوليه الأب عطفه فيتربصون به، ويكيدون له، ويدعون أكل الذئب له، ويرمونه فى بئر فيلتقطه أحد السيارة ويبيعه لعزيز مصر.. ليقوم يوسف عليه السلام بالدور الذى رسمه له القدر، وينتهى به الأمر ليكون على خزائن مصر.. القصة تصور لنا الغيرة والحب والحقد والتطلعات التى تنطوى عليها نفسية الإنسان بصورة غاية فى الإعجاز.. إنها تصور ما يجرى فى أعماق النفس الإنسانية، وما ينعكس من خلال ذلك على الشخصية فى صراعها مع الحياة والأحياء.. والقرآن لايحدثنا عن الأنبياء وحدهم، بل يحدثنا أيضا عن أهل الكهف الذين ناموا ثلاثمائة عام وازدادوا عشرا، وهذا الذى عاش مائة عام وجد طعامه كما هو لم يتسّنه ويحكى عن حكمة لقمان، وجشع قارون الذى تصور أن ثرواته الطائلة جاءت بعلمه وذكائه وليس من الله.. فانهارت ثروته.. ومثل هذه القضايا تروى لإبراز قدرة الله، ونعمه على عباده، ومعرفته بخبايا النفوس والقلوب.

وإذا تابعنا القصص القرآنى الذى يحملنا إلى عصور مختلفة بعاداتها وتقاليدها وعباداتها، وما مر على الإنسانية من صور الحياة، فكأنه يوجز لنا هذه المسيرة، وأن النفسية الإنسانية واحدة فى كل العصور.. ولا تختلف إلا باختلاف تغير المؤثرات الاجتماعية والبيئية والثقافية على هذا الإنسان.

ونلاحظ أن قصص القرآن موزعة على سور القرآن الكريم، وليست هناك قصة متكاملة.. أى نعرف خيوط تطورها من أولها إلى آخرها إلا قصة يوسف عليه السلام، أما باقى قصص الأنبياء والمرسلين، فنراها متفرقة على هذه السور، يقص أجزاء منها فى بعض الآيات، وبعضها الآخر فى آيات أخرى فى سور أخرى، وتتكامل هذه القصص من خلال القرآن الكريم كله.

وهل يمكن أن نرى إعجازا فى تصوير الأحداث وردود أفعال هذه الأحداث، بأسلوب قصصى معجز يمثل ما تصوره هذه الآيات من سورة يوسف عليه السلام.. فهى تصور ما حدث.. وتصور ما يجيش بأعماق أبطال هذه القصة، ثم ينطوى على مفاجأة ضبط الزوج لزوجية فى هذا الموقف المخزى، وتبرير امرأة العزيز لفعلتها بإلقاء التهم جزافا على يوسف لتبعد عن نفسها التهم.. وموقف يوسف.. وموقف الزوج.. بسرد لايقدر عليه كاتب أو أديب مهما أوتى من موهبة..

قال تعالى:

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف: ٢٣ - ٢٩].

فمعظم القصص كما يقول سيد قطب يبدأ بإشارة مقتضبة، ثم تطول هذه الإشارات شيئا فشيئا، ثم تعرض حلقات كبيرة تكّون فى مجموعها جسم القصة، حتى إذا استوفت القصة حلقاتها عادت هذه الإشارات هى كل ما يعرض منها، أو على حد تعبير محمد قطب عبد العال فى دراسته عن القصة فى القرآن الكريم أن الأغراض التى تناولتها القصة القرآنية من النوع الذى يثير فى السامع أو القارىء على السواء كثيرا من الانفعالات، ويحرك فيه شتى العواطف والمشاعر، ويجعل الإنسان أكثر ارتباطا وشوقا إلى مواصلة القصة ومتابعة

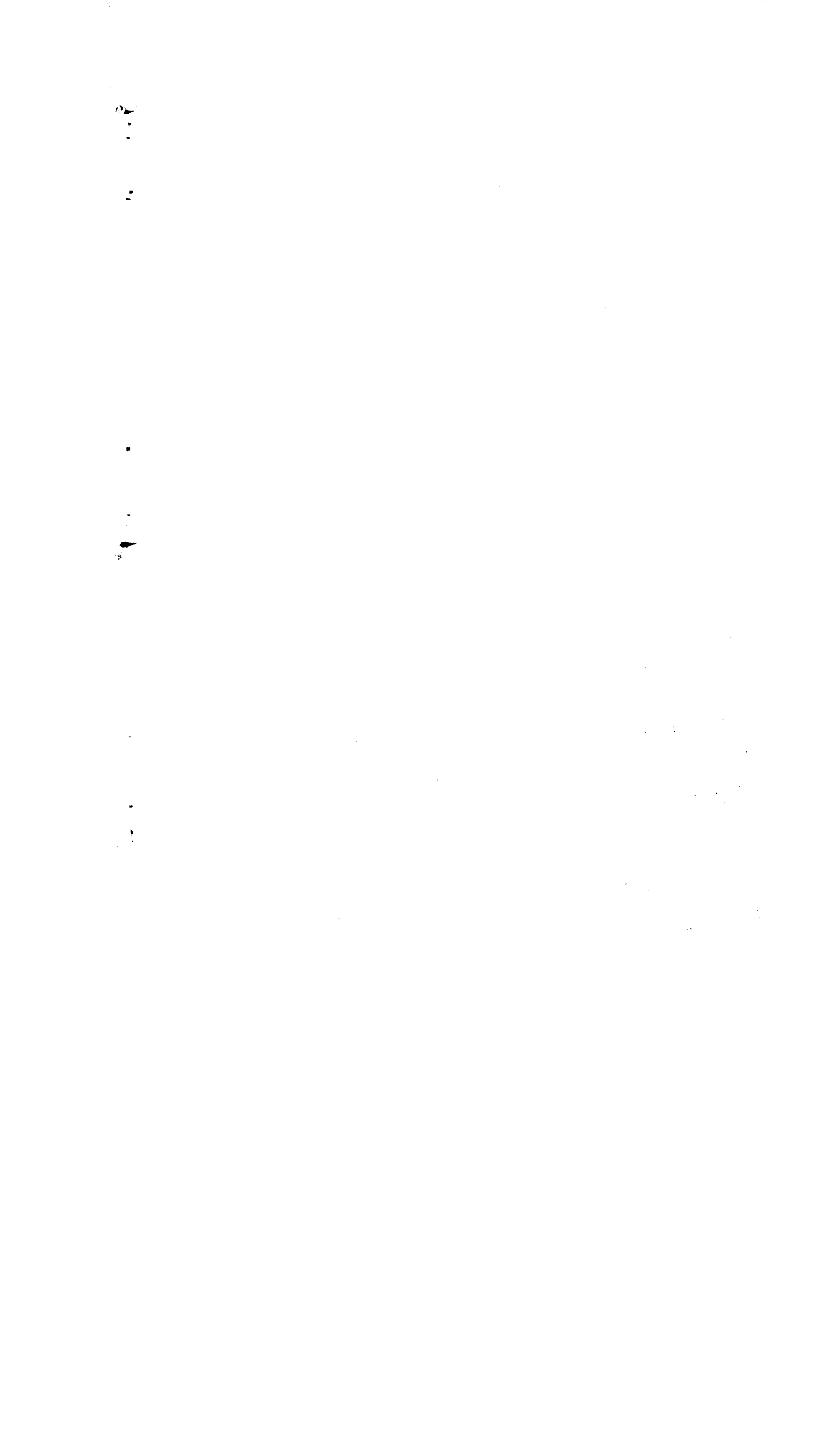
أحداثها حتى النهاية. وذلك لما يتضمنه بناء القصة القرآنية من قوة العرض والسرد، وجمال الوصف والتصوير، وحركة الأشخاص وصراعها. فيظل العرض القصصى عالقا فى الذهن ومؤثرا فى النفس.

ويتابع تحليله بقوله:

ولاشك أن الفرض فى القصة كان وراء طريقة بناء القصة وتكرارها، وطريقة الأداء الفنى الذى اتخذته، القصة القرآنية وسيلة للإبلاغ والتوصيل من تفصيل فى العرض، وإيجاز فيه، أو اكتفاء بالسرد أو استعمال الحوار أو المزج بينهما، أو تعقيد الموقف، أو تبسيطه، فضلا عن تخير المواقف المثيرة بما تتضمن من مفاجآت وحلول.

فالفرض الذى تبرزه القصة القرآنية يتمثل أمام القارىء أو السامع عبر بسط وسرد، وانفراج وتعقيد حافل بعناصر الانفعال والجذب الانفعالى. وهذا ما يعمق هذه الأغراض فى النفوس..

* * *




(٨)
الموت
بوابة الآخرة

الشيء المؤكد أن كل كائن حي مصيره الموت.

ولا أحد مات وعاد إلى الحياة حتى يخبرنا عن طعم الموت وما وراء هذا الموت.

إنه شيء مجهول..

ومن هنا خشيه الناس وخافوه.!

إن الموت يعنى أن الروح فارقت الجسد.. الروح تصعد إلى بارئها فى عالم البرزخ.

والجسد يعود إلى التراب إلى أن تعود إليه الروح يوم الدين .. هذا هو ما يقرره الإسلام.

فنحن لانعرف عن الموت وما وراءه من جنة أو نار إلا من خلال ما أخبرنا به الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز.

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٢].

لقد علمت الأديان السماوية الإنسان أن الحياة مجرد جسر لعالم خالد .. عالم ينصب فيه ميزان العدل، لينال كل إنسان جزاءه على قدر ما قدم فى دنياه من خير أو شر.

والحضارة المصرية القديمة هى الأخرى قد أقرت بوجود هذا العالم الخالد بعد الحياة، وكانت فلسفة أخناتون من أرقى الفلسفات العقلية التى اهتدت أن وراء هذا الوجود ربا واحدا.. هو واهب الحياة، وما الشمس إلا رمزاً لهذه العبادة.

صحيح أن ثورة أخناتون قد أخمدت بعد وفاته، وبعد فترة حكم استمر سبعة عشر عاما، ولكن دعوته أدهشت المفكرين حتى رفعه البعض منهم إلى مرتبة عالية من كبار المفكرين لأنه اقترب من فكرة التوحيد.

وما تركته لنا الحضارة الفرعونية من أهرامات ومقابر يعنى أنهم آمنوا بالبعث، وأنهم يحاولون الاحتفاظ بأجسادهم المحنطة سليمة.. انتظارا لهذا البعث.

والديانة اليهودية تؤمن بالبعث كما قال موسى عليه السلام للذين آمنوا بدعوته، إلا أن اليهود حرفوا التوراة بعد ذلك.. وعندما كتبوا التوراة أثناء السبى البابلى أضافوا إليها من عندهم الكثير.. فقد وضعوا فيها أحلامهم وأمانيهم وأطماعهم التوسعية.. ومن الذى حرفوه حقيقة البعث.. فهم يرون أن الأرواح تذهب فى مكان مظلم سحيق، هو الأرض السفلى أو الجُب.. ويطلق عليه اسم (شوءول) أو (شيول).. هى الهاوية التى تأوى إليها الأشباح بعد الموت ولا نجاة منها لميت. وأن الذى ينزل إلى هذه الهاوية لايصعد.

ولم يكن غريبا على اليهود الذين عصوا نبيهم فى حياته أكثر من مرة، أن يشوهوا التوراة.. وأن يدخلوا فيها ما ليس منها.

فإذا انتقلنا إلى المسيحية التى جاء بها السيد المسيح عليه السلام، فإننا نراها وقد جاءت فيها ظروف تقدس المادية، فأرادت أن تخفف

من غلواء المادة، وأن تعلوا من قيمة الروح، وأن تكون دعوة روحية خالصة.. وأن يكون شعارها المحبة، على أساس أن المحبة هى جماع الفضائل.. وأن الحب يسمو بالإنسان. ولهذا قال السيد المسيح فى عظته على الجبل «أحبوا أعداءكم. باركوا لاعنيكم.. أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم. لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السماوات، فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والظالمين، لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم فأى أجر لكم. أليس العشارون أيضا يفعلون ذلك. وإن سلمتم على إخوتكم فقط فأى فضل تصنعون أليس العشارون أيضا يفعلون هكذا..» [إنجيل متى].

وجاء فى الكتاب المقدس.

«من لا يحب أخاه يبقى فى الموت.. كل من يبغض أخاه قاتل نفس. وأنتم تعلمون أن كل قاتل نفس ليس له حياة أبدية».

والحياة الأبدية هى الإيمان بما بعد الموت.. بعالم الجزاء.

والمسيحية تتحدث عن قيامة المسيح، وقيامة الأموات، وعودة الأجساد إلى الحياة كما يؤكد القديس بولس على البعث.. بعث الروح وبعث الجسد أيضا.

ولكن التحريف أصاب هذه العقيدة بسبب محاولة ربطها بالفلسفات المختلفة، وخاصة فلسفة أفلاطون والأفلاطونية الجديدة، ومن هنا لم يظهر العالم الآخر فيها بالصورة التى كان يدعو إليها السيد المسيح . .

ولكن الصورة المتكاملة للبعث نراها فى التصور الإسلامى . . التصور الإسلامى يرى أن الحياة يأتى بعدها حياة البرزخ، تمهيداً ليوم القيامة . . يوم الحساب والجزاء .

﴿**تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا**﴾ [القصص: ٨٣].

ولعل علامة استفهام كبيرة تدور فى ذهن كل منا عن ماهية الموت، وعلاقة النوم بالموت كما جاء فى الآية الكريمة التى ذكرناها فى أول هذا الفصل . .

لعل ما قرأته فى كتاب (النوم والرؤيا والأرق بين الدين والعلم) للدكتور أحمد فتحى الزيات والدكتور ممدوح الوكيل، يقرب هذه الصورة . . فهما بعد أن يتحدثا عن فائدة النوم يتحدثا عن علاقة الموت بالنوم من خلال منظور علمى . يقولان:

«وإننا نرى أيضا أن كل النظريات لم تتعرض لطبيعة النوم وماهيته، وعلى ذلك فإن هناك فكرة تفرض نفسها على أى مفكر قد ينظر إلى الموضوع بعين خالية من التعصب، تلك الفكرة التى نستقيها

من فكرة تشابه الموت والنوم فى أوجه كثيرة، واختلافهما فى درجة إبطاء الوظائف الجسمية، وقدرة الإنسان على أن يوقظ النائم وعدم قدرته على أن يحيى الميت.

نقول أن تلك الأفكار لابد أن تؤدى إلى الفكرة التى تقول أن الإنسان الحى يتكون من شىء مادى هو الجسد يحل فيه شىء غير مادى هو ما يطلق عليه الروح أو النفس. وهذه تؤثر فيه فتؤدى إلى حركته واستجابته للمؤثرات بشكل واضح.. تلك النفس أو الروح تنفصل عن الإنسان أثناء الموت أو النوم ولكنها ترجع إليه فى الحالة الأخيرة ولاترجع إليه فى الحالة الأولى كما يرشدنا إلى ذلك قوله تعالى:

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٢].

وقد يعتبر البعض أن الأشياء المعنوية لايمكن أن يكون لها تأثير مادى، ولكن الدكتور كلارك كيندى الأستاذ بجامعة لندن يرد على ذلك قائلا: «أن الإنسان إذا أراد الحركة وحرك يده فإنما هناك شىء معنوى غير مادى يؤدى إلى شىء مادى.. أى أن الإرادة وهى شىء معنوى تؤدى إلى الحركة وهى شىء مادى».

* * *

الموت إذن هو الحقيقة المؤكدة الذى لن يفلت منه كائن حى. . وهو السر الغامض الذى حيَّر المفكرون والفلاسفة وهم يحاولون أن يصلوا إلى حقيقته وما وراءه، ورغم أن الموت حق. . وأنه البوابة التى لابد أن يدخلها كل المخلوقات. . وأنه أثار العديد من علامات الاستفهام، وألفت فيه آلاف المجلدات، وجاء ذكره على لسان ملايين الشعراء عبر مختلف الصور وهم يرثون موتاهم، إلا أنه ظل لغزا محيرا ومخيفا، لأن تصور أن يحيا الإنسان بعد أن يموت ويتحلل ويتحول إلى تراب، ما كان يمكن أن يتصوره الناس ما لم تكن لهم عقيدة سماوية تبشرهم بالحياة مرة أخرى. . ومن هنا نرى فى الجاهلية من كان يردد هذا البيت الشهير:

حيـــاة ثـم بعث ثم نشـر حديث خرافة يا أم عمرو

بل أن أحدهم وهو يرثى من قتل يوم (بدر) من كفار قريش وهو شداد بن الأسود. . قال:

يخبرنا الرسول بأن سنحيا وكيف حياة أصداء أوهام

لم يكن هؤلاء الكفار يصدقون أن هذا الإنسان الذى تحول إلى تراب يمكن أن تدب فيه الحياة من جديد، ولكن بعضا من عرب الجاهلية وكأنهم لايتصورون أن يتحول هذا الإنسان الذى كان ملء

السمع والبصر إلى تراب، أن حياته هى نهاية المطاف، بل تخيلوا أن من دماء الميت التى توجد فى دماغه وأجزاء من جسمه يتحول إلى طير، يزور قبر صاحبه كل مائة عام؟!

لذلك قال الرسول عليه الصلاة والسلام منكرا هذا الزعم : «لا هامة ولا عدوى ولا صَفَر».

وهناك من العرب من كان يؤمن بالله، هؤلاء الذين تواترت لديهم دعوة إبراهيم الخليل عليه السلام، ولكن بتقادم العهد تناسوا رحيق السماء، فآمنوا بأن لهذا الكون إلهاً خالقا، ولكنهم لم يؤمنوا بالبعث، وهذا ما يعبر عنه القرآن الكريم بقوله:

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٨].

الإسلام إذن هو الذى أوضح حقيقة الموت كبوابة للعالم الآخر بعد انتقال الروح إلى الملأ الأعلى. .

ففى أعقاب معركة (بدر) عندما انتصر المسلمون على مشركى مكة، أمر الرسول ﷺ أن تحفر حفرة كبيرة تلقى جثث موتى المشركين، وهالوا عليهم التراب، ووقف الرسول عليه الصلاة والسلام على شفة القليب (الحذة) . . وقال:

يأهل القليب. . بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم، كذبتمونى وصدقنى الناس!

وأُخرجتمونى وأوانى الناس.

وقاتلتمونى ونصرنى الناس.

هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟

فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقا .

فقال المسلمون:

- يارسول الله، أتنادى قوما جَيَّفوا؟

فقال النبى ﷺ:

- «لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق».

* * *

ونعود إلى دراسة (الروح) من خلال الرؤية الإسلامية، وقد أعجبنى ماكتبه الدكتور أحمد الشرباصى عن الروح فى كتابه (من أدب القرآن).. فهو بعد أن يستعرض الآيات الشريفة التى تتناول الروح والأحاديث الشريفة الصحيحة يقول:

«والذى أفهمه من خلال الفكر الإسلامى أن الروح موجودة، ولكن جوهر حقيقتها غير مفهوم لنا، وأنها أسبق وأشرف من المادة. وأننا نستطيع التعرف على كثير من آثارها وظواهرها، وأن أثارها تظهر لنا حين اتصالها بالجسد، وأن الجسد لاقيمة له دون الروح وأن البحث قد شغل وسيظل يشغل العلماء والحكماء والشعراء والأدباء

إلى ما شاء الله. . وكأن للروح جاذبية قاهرة تشدنا إليها فنسارع نحوها. وكلما خطونا نحوها مرحلة بعدت عنا مراحل. وتركت لنا عن طريق البحث أشياء من (مخلفاتها) وكأنها حسناء تبرقعت بحجبها وأشعارها. ولكن أشعة ساطعة من بهائها تنفذ من خلال حجبها، فتشاغل أبصارنا وبصائرنا. فنجد المسير إليها والطريق طويلا طويلا طويلا. .

وهذا مثلا هو الشيخ الرئيس ابن سينا أو على بن الحسين بن عبد الله المُتوفى سنة ثمان وعشرين وأربعمائة يصوغ بضعة وعشرين بيتا فى موضوع (الروح) وتسمى هذه الأبيات (عينية ابن سينا فى الروح) فتملأ الدنيا وتشغل الناس، وتوضع عليها الشروح بعد الشروح، وتصاغ المعارضة بعد المعارضة.

وهذه الأبيات تؤكد لنا أن الروح جذابة ذات بهاء وسناء، وأنها ممنعة مبرقعة، وأنها كما أشار ورمز فى قصيدته، وكما صورت (دائرة المعارف) جوهر قائم بذاته، لا عرضا من أعراض الجسم.

ويرى أن علاقة الروح بالجسد علاقة جوار عرض لا علاقة اتحاد ذاتى.

وكما هبطت الروح إلى الجسم من الملأ الأعلى وهى كارهة، تفارقه عند الموت وهى كارهة، لأنها ألفته مع طول الحوار. وكأن الجسم سجن كثيف أو قفص ضيق يحول دون بلوغ الروح كمالها.

وكأنها لا تألف مجاورة الجسد إلا بحكم الاعتياد، فإذا فارقته بعد اكتمال ملكاتها العقلية وبلوغها الكمال بالتأمل انكشف عنها الغطاء، وأدركت العادة.

وما الحياة الدنيا سوى مدرسة أهبطت الروح إليها لتكسب المطالب العقلية، فإذا نالت هذه المطالب، تمتعت بعد الموت بالسعادة الأبدية.

وإذن فسعادة النفوس الطيبة والأرواح الخيرة العارفة تكون فى اتصالها بالعقل والعقال، وأما النفوس الشريرة التى ألفت السوء والإثم فإن جزاءها هو العذاب الدائم، ومن هنا يكون الثواب فى الآخرة متناسبا مع كمال النفس فى الدنيا.

ويورد لنا القصيدة الرائعة للفيلسوف ابن سينا عن الروح والتى مطلعها:

هبطت إليك من المحل الأرفع

ورقـــــاء ذات تعـــزز وتمنــع

محجوبة عن كل مقلــة عارف

وهـى التـى سفـرت ولـم تتبرقع

وصلت على كره إليك ، وربما

كرهت فراقك وهى ذات تفجع

ولا نملك ونحن نطوف هذا العالم الذى لايستطيع الإنسان أن يعيش بدونه، ولا يملك إزاء غموضه ووضوحه فى نفس الوقت إلا أن نعيد قراءة قوله تعالى:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥) ﴾ [الإسراء: ٨٥].

* * *

ولأن الموت حق..

فإن الصالحين من عباد الله لايخافون منه، ولايخشونه لأن بهم شوقا إلى لقاء خالقهم الأعظم.. إن فرحتهم عظيمة بهذا اللقاء أعدوا أنفسهم له.. إنهم يريدون الاتصال بملكوت الله، بعد أن تزول عنهم غشاوة الجسد، وسجنه للروح.. إن الروح تتوق إلى بارئها.. تتوق إلى النور القدسى، إلى عالم البهاء والأنوار.. إلى عالم لايمكن تصوره بالعقل، ولكنهم يرونه بنور البصيرة، ومن هنا نرى أبو الدرداء يقول:

«أحب الموت اشتياقا إلى ربى، وأحب الفقر تواضعا لربى، وأحب المرض تكفيرا لخطيئتى».

فالموت عند الصالحين، وأهل الصفاء من الصوفية، هو الطريق إلى العالم الذى كانوا يحلمون به.. إنهم يطيرون شوقا وحبا لله، والموت هو الذى سيحقق لهم هذه الأمنية للقاء الحبيب..

إنهم آمنوا أن حياتهم الدنيا قصيرة.. وأن منتهى أمالهم أن يعودوا إلى ربهم طاهرين.. غير محملين بالخطايا.. فهو لايريد الغنى والجاه والثروة.. فكل هذه الأمور قد تفتن الإنسان عن الاقتراب من ربه، فكان من أمالهم ألا يفتنوا بدنياهم بوسيلة من وسائل الإغراء التى تدفع الإنسان إلى الوقوع فى المعاصى، بل انهم تمنوا الصبر على الفقر والمرض، حتى يكون فى ذلك تكفيرا عما ارتكبوه من الذنوب فى دنياهم فيلقوا الله سبحانه وتعالى، ولم يعلق بهم عوالق من شوائب الدنيا.. فإذا ما جاء الموت، وهو مرحلة فى حياة الإنسان كانوا قد استعدوا لما بعده.. لأن الموت والحياة وجهان لعملة واحدة.

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: ٢].

والموت ليس نهاية المطاف ولكنه بداية حياة جديدة ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الروم: ٤٠].

وإذا كنا لانعرف يقينا ما يجرى للإنسان عندما يودع الحياة، لأن من يودع الدنيا لايعود إليها أبدا، إلا أننا نوقن بما جاء فى القرآن الكريم والسنه المطهرة، بأن الإنسان يعذب وينعم فى قبره.. ولكن كيف؟

- هذا غيب والغيب لا يعلمه إلا الله.

إن الجسد الذى خُلق من التراب ويعود إلى التراب.. والروح التى هى نفحة من الله تعيش فى عالم البرزخ.. وهو ما يتصل بين

الحياة الدنيا والآخرة. . أو هى فترة الانتقال بين الحياة . . وبين يوم البعث والنشور. . وهذه الفترة تعيشها الروح بلا إحساس بلا زمن، لأنها خارج نطاق الزمن. . ويكون لها حياتها حسب ما عملت فى دنياها - وإن كانت هذه الحياة أيضا غيب. . فالقرآن الكريم مثلا يحدثنا عن حياة الشهداء فيصفها بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون.

إذن فلنا حياتنا فى عالم البرزخ. . لنا وجود روحى. . تمهيدا لهذا اليوم العظيم. . يوم ينفخ فى الصور. . ويقوم كل من عاشوا فى الحياة ليواجهوا واقعاً جديداً، وحياة جديدة. . بعد أن ينصب ميزان العدل. . ويصنف الناس حسب أعمالهم فى الدنيا.

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ [يس: ٥١-٥٣].

فالإنسان كما يقول فيلسوف الإسلام «ابن سينا»:

«اعلم أن الجوهر الذى هو الإنسان فى الحقيقة لايفنى بعد الموت، ولا يبلى بعد المفارقة عن البدن، بل هو باق لبقاء خالقه تعالى. ذلك لأن جوهره أقوى من جوهر البدن لأنه محرك البدن ومدبره ومتصرف فيه. والبدن منفصل عنه تابع له. فإذن لم يضر مفارقته الأبدان وجوده. . .».

ويقول الإمام الأصفهانى عن الخلود:

«إن الموت المتعارف الذى هو مفارقة الروح للبدن هو من الأسباب الموصلة الإنسان إلى النعيم الأبدى، وهو انتقال من دار إلى دار، فهو وإن كان فى الظاهر فناءً، واضحملالاً فهو فى الحقيقة ولادة ثانية. فالموت أى مفارقة الهيكل إذن ضرورى فى كمال الإنسانية، ولكون الموت سببا للانتقال من حال أوضع إلى حال أشرف وأرفع سماه الله تعالى توفيا وإمساكا عنده فقال تعالى:

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢].

وقد قال الشيخ حسنين مخلوف مفتى مصر الأسبق:

«ينبغى أن نعلم أن عالم الأرواح يختلف عن عالم المادة اختلافا كثيرا فى أحواله وأطواره، فالروح وحى من أمر الله تعالى يسلكها الله فى البدن فى الدنيا فتوجب له حسا وحركة وعلما وإدراكا ولذة وألما.. ويسمى بذلك حيا.. ثم تفارقه فى الوقت المقدر أزلا لقطع علاقتها به فتبطل هذه الأثار ويفنى هيكل البدن ويصيرا جماداً ويسمى عند ذلك ميتا. ولكن الروح تبقى فى البرزخ - وهو ما بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة من يوم الموت إلى يوم البعث والنشور - حية مدركة تسمع وتبصر وتسبح فى ملك الله حيث أراد وقدر، وتتصل بالأرواح الأخرى وتناجيها وتأنس بها سواء أكانت أرواح أحياء أم أرواح أموات، وتشعر بالنعيم والعذاب واللذة والألم،

حسب حالتها وعملها فى الحياة الدنيا، وترد أفنية القبور، وتأوى إلى المنازل. وهى فى كل ذلك لايحدها مكان ولا يحصرها حيز. . . . »

* * *

وفى الغرب دراسات كثيرة حول الروحية، ولهم أبحاث كثيرة فى هذه المجالات. . هذه الدراسات إن دلت على شىء فإنما تدل على حرص الإنسان على معرفة ما سيؤل إليه أمره بعد الموت.

ونحن هنا نعرض لبعض هذه الأبحاث. . لا من حيث صحتها أو عدم صحتها. . ولكن لنلم بما يجرى من دراسات روحية فى عالم اليوم لمعرفة المصير الإنسانى. . بغض النظر عن مدى دقة هذه الأبحاث والنتائج التى توصلت إليها. . ولكنها فى كل الأحوال تعطى مؤشراً إلى حرص الإنسان فى عصر الذرة والإلكترونيات والإنترنت والتقدم العلمى المادى المؤهل، أن يعرف ما سوف يؤول إليه أمره بعد مفارقة الحياة.

ونقف وقفة أمام نموذج مما أورده الدكتور رءوف عبيد فى كتابه (ظواهر الخروج من الجسد. . أدلتها - دلالاتها) والذى يتحدث فيه عن جهود العلماء لمعرفة ظاهرة الموت، وخروج الروح من الجسد. . وهو فى هذا الكتاب يحدثنا عن هؤلاء الذين أصيبوا بحوادث، وما رأوه لحظة إجراء العمليات لهم، وكيف رأوا أشياء عجيبة. . رأوا كل ما يدور حولهم. . حتى العمليات التى أجريت لهم إلى أن عادوا من

غيبوبتهم، وصفوا ما رأوا وكان مطابقا للحقيقة، كما حدثنا عن أراء العلماء والظواهر الروحية العجيبة التى تثبت بما لايدع مجالا لشك، أن الروح خالدة، وأن لها عالما آخر مغايراً للجسد، ونقف عند نموذج من النماذج التى ساقها (عن الميلاد الثانى).. ويعنى عن الروح بعد مفارقتها الجسد، وكيفية هذا الميلاد يقول:

«لاريب أن النتيجة الحتمية التى يخرج بها الإنسان من كل ما تقدم هى أن الموت ليس فناء بالمرة بل مجرد ميلاد ثان للإنسان فى عالم آخر، أو بحسب تعبير أنيشتين العالم الرياضى:

«إن الموت جواز سفر إلى مكان آخر».

وقد وضح كيفية هذا الميلاد الثانى بعض وسطاء الجلاء البصرى عند حضورهم فى ساعة الاحتضار بالقرب من (المنتقلين) ومن ذلك ما رواه الوسيط أندرو جاكسون دافيز فى مؤلفه عن (الموت والحياة الثانية) وصفا لعملية الانتقال قائلا:

- قام الرجل على فراشه يعانى سكرات الموت. كان موته سريعا.. ازدادت سالبية الجسد وبرودته بازدياد الإيجابية والدفء فى الجسم الروحى.. وبردت القدمان أولا.. وظهر بريق فوق الرأس مباشرة مما يصح أن نسميه هالة مغناطيسية يراها كل ذى جلاء بصرى، وهذه الهالة انبعاث أثيرى ذهبى اللون يختلج وينتفض كأنه يحس ويشعر.

ثم وصلت البرودة إلى الركبتين والساعدين ثم امتدت إلى الردفين وامتد الانبعاث ولكن لم يرتفع بعد. وامتدت البرودة إلى الصدر والجانبين، استطال ذلك الانبعاث وتشكل بصورة إنسان وبقى متصلا بالمخ، ثم اختلجت الرأس من الداخل بهزه بطيئة عميقة ولكنها غير مؤلمة، فكانت كهزة ماء البحر الضعيف التموج.

أما قوى الرجل الذهنية فظلت سليمة حتى مات آخر جزء منه، وظل يصل ما بين هذا الانبعاث الذهنى والمخ خيط دقيق جدا من خيوط الحياة، ثم ظهر على جسم الانبعاث شيء آخر أبيض لامع فى شكل الرأس، بعدئذ ظهر وجه نراه، وبدأت بعد ذلك رقبة لطيفة وكتفان جميلان، وتلا ذلك بسرعة ظهور بقية أجزاء الجسم حتى القدمين، فإذا الجسم شبح زاه لامع كله، يزداد اصفراره قليلا عن الجسم المادى ولكنه نسخة طبق الأصل منه فى جميع تفصيلاته، وظل ذلك الخيط الرفيع الدقيق متصلا بالمخ القديم ولم يبق بعد ذلك إلا انفصال هذا العنصر الأثيرى، ثم أفلت الخيط وتحرر الجسم الروحى وانطلق (عن كتاب الأستاذ عبد الرازق نوفل «الحياة الأخرى»).

ويواصل الدكتور رءوف عبيد حديثه فى نفس الكتاب فيحدثنا عن حالة مماثلة ترويها السيدة دى مورجان عقيلة العالم الرياضى المعروف أوجستوس دى مورجان وقد وردت فى كتاب (من المادة إلى الروح).

«كنت فى ذات يوم بصحبة صديقة أعلم أنها ذات حاسة لرؤية روحية (جلاء بصرى) متقدمة بوجه خاص. وكنا إلى جوار فراش إنسان محتضر، وعندما تحول تنفس المحتضر إلى مجرد لهث شاهدت غيمة بيضاء تنبعث من الجسد وتقف على بعد حوالى عشرة سنتيمترات منه، ولاحظت أن صديقتى كانت تلاحظ بانتباه نفس الظاهرة.

وكانت عينا صديقتى تشرقان بضوء غريب عندما ينظران أشياء غير منظورة بحسب المألوف وقد اتجهنا لحظة نحو المحتضر ثم تحولنا إلى ناحية رأس الفراش حيث تكاثف الضوء فى صورة عمود يبلغ طوله حوالى ١٣٠سم. ومن هذا العمود انبعثت إضاءة ذات بريق متوسط بين بريق الشمس والقمر، وداخل هذا البريق أمكننى أن أرى إشراقا أشد حيوية. وأخذت المنطقة الوسط لهذا الضوء تتزايد فى إشراقها، ثم أخذت تستدير.. وتكررت نفس الظاهرة عندما لفظ الشخص المريض آخر أنفاسه، وعندئذ بدأ العمود المشرق آخذا فى الارتفاع والاختفاء».

ويقول الباحث: وعن طريق البحوث الروحية الجادة المثابرة أمكن الحصول على الآلاف من الصور التى تمثل أجسادا أثيرية مكان ذلك العالم الآخر، وتبدو مماثلة تماماً لأجسادهم الفيزيقية التى تخلوا عنها بالوفاة. وهى تثبت صحة ظاهرة التأثير المباشر للعقل فى الألواح الحساسة، كما تثبت فى نفس الوقت صحة وجود الأجساد الأثيرية وعدم فنائها بالموت.

والمراجع الروحية حافلة بالآلاف من هذه الصور التى جاءت تحت أدق رقابة، وأُلفت عنها مؤلفات من علماء كثيرين لا صالح لهم إلا فى تقرير الحقيقة العلمية مهما بلغت درجتها من الخطورة واتساع النطاق.

* * *

مهما يكن من شىء فإن حياة البرزخ.. أو الميلاد الثانى للإنسان عند خروج الروح من الإنسان حقيقة أكدها الإسلام.. لأن البعث حقيقة مؤكدة، ولكن بعد الرحيل ينقطع عمل ابن آدم، ولايبقى له إلا ما قدمت يداه، حتى أنه يتمنى أن يعود إلى الدنيا، ليعمل أكثر مما عمل، حتى ينال الجزاء الأوفى..

يقول تعالى:

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

وقال تعالى:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]

وتروى لنا كتب السيرة، كيف أن الرسول عليه الصلاة والسلام نهى الناس عن النياحة على الميت، وما ذلك إلا أن هذا الميت قد انتقل إلى حياة جديدة بجوار ربه:

يقول عليه الصلاة والسلام:

«ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية».

وروى الشيخان عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: «اشتكى مسعد بن عباده رضى الله عنه شكوى فأتاه رسول الله ﷺ يعوده مع عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهم، فلما دخل عليه وجده فى غشيته فقال: أقضى. قالوا: لا يارسول الله. فبكى رسول الله ﷺ، فلما رأى القوم بكاء النبى ﷺ بكوا قال: ألا تسمعون أن الله لايعذب بدمع العين ولابحزن القلب ولكن يعذب بهذا (وأشار إلى لسانه) أو يرحم».

والإسلام يراعى الطبيعة البشرية.. والطبيعة البشرية تتأسى وتحزن عند فراق الأهل والأحباب.. والرسول عليه الصلاة والسلام بكى عند فراق ابنه إبراهيم.. وعندما سأله عبد الرحمن بن عوف:

- وأنت يارسول الله؟

فقال عليه الصلاة والسلام:

«يا ابن عوف إنها رحمة .. إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا.. وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزنون».

وروى مسلم عن عوف بن مالك رضى الله عنه قال: كان ﷺ على جنازة فحفظنى من دعائه وهو يقول: «اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه وأكرم نُزُله، ووسّع مدخله، واغسله بالماء والثلج والبرد، ونقه من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله دارا خيرا من داره، وأهلا خيرا من أهله، وزوجا خيراً من زوجه، وأدخله الجنة، وأعذه من عذاب القبر» حتى تمنيت أن أكون أنا هذا الميت.

* * *

ولعل من أجمل الصور التى صورت العالم الآخر ما كتبه الإمام المحاسبى.. وقد أورده الدكتور عبد الحليم محمود فى كتابه «القيامة فى تصور المحاسبى».

ويحدثنا الدكتور عبد الحليم محمود عن يوم القيامة فى تصور المحاسبى فى كتابه بقوله:

«يتضمن القرآن آيات عديدة تتعلق باليوم الآخر، وخاصة فى الأجزاء المكية منه، نذكر منها على سبيل المثال قوله تعالى:

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ

كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١-١٤].

وقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ١ - ٥].

وقوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية: ١ - ١٦].

والمحاسبى يتحدث عن القيامة فى مواضع مختلفة من مؤلفاته، وهو يسعى بذلك - على النهج القرآنى فى تحذير الناس - إلى غرس التقوى فى قلوبهم بالوعد ثم الوعيد.. وقد خصص كتاباً لوصف اليوم الآخر، وما يلقاه الإنسان بعد الممات هو كتاب «التوهم». والواقع أنه لم يصدر هذا المؤلَّف كبحث دينى لشرح ما سوف يكون يوماً ما فى الآخرة، ولكنه يصور فيه العالم الآخر ومصير الإنسان حسبما يتخيله هو منهما... وهو لايناقش حجة، أو يذكر مصادر علم وإن كان لايخرج عن إطار فكر أهل السنة.

وكتاب التوهم هذا لم يصدر عن عالم إلهيات، بل هو من إنشاء شاعر روائى، وأروع ما يلفت نظر القارىء له - بادىء ذى بدء - أسلوبه العربى الباهر، الذى يعتبر من مآثر المحاسبى الباقية على مر الزمن، ثم إنه جعل من وصفه الآخرة نموذجاً أدبياً فريداً، واستطاع أن ينفذ بكل فصل منه إلى أعماق قلوب قارئيه.

وليس لنا هنا أن نتناول مزايا هذا الكتاب من ناحية اللغة والأسلوب، وإننا لنلتقى بعرض هيكله الأساسى.

يرى المحاسبى أن الإنسان إذا حضر أجله رأى ملاك الموت فى مظهر جميل غاية فى الجمال، أو فى مظهر مخيف، ويحدثه هذا الملاك إما بالوعود الباسمة، وإما بالوعيد حسبما أتى فى دنياه من خير أو من شر.

وبعد أن يهال عليه التراب، ينزل إليه ملكان يسألانه، فإذا كانت حياته خيراً يسرت عليه الإجابة، وإن كانت حياته شرا تردَّد فى الإجابة وأثقل عليه.

ويفتح الملكان طاقة فى قبره يلمح منها الجنة بكل روعتها، أو جهنم وما أعد فيها من عذاب، طبقاً لما كانت عليه إجاباته.

ويندثر الجسم الميت، ولكن يبقى فى روحه إلى يوم البعث.. إما السعادة وإما الشقاء. فإذا مات سائر البشر، ولم تعد الأرض تحمل مخلوقات من الأحياء، ولم يبق إلا الله الخالد، تسمع أرواح الناس نداء يدعوها إلى الحساب الأخير.

عندئذ تنشق القبور، ويخرج منها الجميع إلى حيث مصدر النداء.

وإذا اجتمع الكل، اندثرت الكواكب، وانطفأ نور الشمس والقمر، وأظلمت الأرض، وانشقت السماء، وعندئذ تنزل الملائكة لتنصت إلى الحساب الأخير.

ويرى الناس الملائكة كالعمالقة، فيسألونهم إذا كان الله بينهم، فيرتعد الملائكة لذكر اسم الله، ويجيبون: «سبحان الله! إنه ليس بيننا».

ثم يصطفون حول المخلوقات المجتمعة، ولما يكمل التفاف الملائكة بالمخلوقات تعود الشمس إلى الظهور من فوق رؤوسهم، وتبلغ حرارتهم مقدار عشر سنوات من الحرارة ولا ظل إلا ظل عرش الله، ويستمر لظى الشمس، والضيق الناتج عنه ثلثمائة عام، حتى تطلب المخلوقات حساباً ولو كان مصيرها إلى جهنم، وتتوسل فى سبيل ذلك إلى آدم ثم نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى حتى يشفعوا لهم فى ذلك عند الله، فيكون جوابهم: إن غضب الله عظيم، وإنهم مشغولون بأنفسهم وإن كانوا أنبياء.

عندئذ تسعى المخلوقات إلى محمد، فيشفع لها عند الله، فيأذن الله بالحساب.. ويأمر الله جبريل بأن يُحضرَ إليه جهنم، وترتعد جهنم نفسها خشية عقاب الله، ولكنها ترى أن غضب الله يقع على المخلوقات، فتغضب هى الأخرى عليهم، ويسأل الله أنبياءه: ماذا كان موقف الناس من دعوتهم؟

فيجيبون على استحياء: لسنا ندرى، وأنت العليم.

وفى هذه اللحظة يتنكر الابن لأبويه، والأبوان لابنهما، والصاحب لصاحبه، وكل يسعى إلى ذكر ما كان له من فضل على الآخر فى الدنيا حتى يُظهِرَه فى الآخرة.

وقبل الحساب تمد جهنم برقبتها لتلتهم بعض المخلوقات، مستبقة الحكم عليهم، ثم تأتى الجنة فتستقبل من المخلوقات من كان يحمد الله فى كل حال، ومن كان يسهر فى الليل فى ذكره، ومن لم تشغله أمور الدنيا عن عبادته، ثم تطير الكتب فتستقر فى أيدى الناس، إما اليمين منها وإما الشمال، ثم ينصب الميزان، ويتقدم إليه الناس والملائكة يزنون أعمالهم، فإذا رجحت أعمال الخير قسمت للمرء الجنة، وإلا كان مصيره جهنم، وتأتى كائنات من لهب، لتسير بالناس إلى الله، فيقرأ كل إنسان كتابه، ويسأله الله عما اقترفه من شر فى الدنيا وكيف ارتكب هذا الشر رغم ما أفاضه عليه من نعم، ثم يكون حكم الله له أو عليه.

ولكن على الإنسان قبل دخول الجنة أو السقوط فى جهنم أن يجتاز شريطاً ضيقاً حاداً كالسيف قد علق من فوق النار، ليمشى عليه حاملا جميع ذنوبه على ظهره. وكل خطوة فوقه ألم رهيب، ولهيب النار يصعد إليه، ويلفح من فوقه، فمن حكم عليهم زلت قدمه وسقط، فالتهمه الجحيم.

أما الرجل الذى كان خيِّراً فى دنياه فيمشى على الشريط فى يسر وثقة، ويرى الجنة قبل الوصول إلى نهاية الشريط.

وقبل دخول الجنة يغتسل فى عين ماء طاهرة شافية، يرتد بها إلى الشباب، ويتوج بالجمال. . ثم يشرب من عين أخرى فيتطهر من كل آفات القلوب. فإذا ما أتم ذلك كانت له الجنة التى يعرض المحاسبى لها بالوصف بعد ذلك، ووصفه لكل العجائب التى يمكن أن تخطر على بال: فمن أرض الجنة تتصاعد العطور، والقصور عليها من الأحجار الكريمة، والنساء فيها مكتملات الجمال، وينبهر المرء أمام الجمال الساطع الذى يشهده فى هاتيك الحور العين، وهن كثرة يسقين الرجال ما طاب من الشراب، فى كئوس من فضة وذهب حليت باللؤلؤ.

ويرى الدكتور عبد الحليم أن هذا الفصل من كتاب المحاسبى لافت للنظر بما فيه من تصوير بارع للملذات الجسدية مع الحور، ولاشك أن الموضوع مهيأ للتخيلات الشاعرية بصفة خاصة، بيد أن أسلوب المحاسبى فى رسم اللوحات التى ابتكرها فكرة وصل هنا إلى قمة كمالها.

ويمكن القول بأن هذا الفصل واسطة العقد من الكتاب. وإننا لنرى - كما يرى الأستاذ ماسينيون والأستاذ آريرى - أن كل ما جاء به المحاسبى (المؤلف) من وصف مبدع إنما هدفه فى الحقيقة أن يكون

مقدمة - ومقدمة موسيقية مروعة لغتها، لتجلى الذات الإلهية للصفوة المختارة. فإذا ما نال أهل الجنة حظهم من هذا النعيم، نادتهم الملائكة إلى سعادة أخرى.

أن يمتطوا جياداً سماوية، زينت رؤوسها بتيجان من الأحجار النفيسة، فإذا ما وصلوا إلى غايتهم، أجلسوا فى مقاعد وثيرة، وأتم الله إكرامهم بوليمة أطباقها من ذهب، وخدمها الملائكة.

ويواصل المحاسبى وصف ما يلقاه أهل الجنة من رضوان ربهم: ثم ترفع الستر ويتجلى عليهم الله فى روعة كماله، فإذا رأوا الله كان لهم بذلك من السعادة ما لم يقدروا قط على تخيله، فالله الخالد لاشبيه له، ويسلم الله عليهم، ويحدثهم، وينصتون إليه فى شوق، ويشعرون بسعادة لا تُحد، تنزل فى قلوبهم، وتستر وجوهم بانعكاسات هذه السعادة العليا.

وأخيراً يأذن الله لهم بالعودة إلى الجنة، ليعيشوا فيها أبداً خالدين فى النعيم والسعادة التى أفاضها على عباده المخلصين.

* * *


(٩)
الحياة
الخالدة

يعيش الإنسان حياته إلى أن ينتهى أجله الذى يفضى إلى الموت. . وبانتقاله من دنيانا يعيش حياة البرزخ، حيث تجتمع كل الخلائق تمهيداً ليوم العرض والنشور.

ومادمنا قد آمنا بالإسلام دينا، وما فيه من عقائد، فليس أمامنا لمعرفة هذا العالم إلا ما جاء به وحى السماء. . القرآن الكريم والسنة المطهرة هى سبيلنا إلى الوقوف عند تصور للعالم الذى فيه تستقر كل الخلائق. . إما حيث النعيم المقيم أو العذاب. .

فمن الصعب تصور حقيقة الحياة فيه، لأنه كما يقرر القرآن الكريم. فيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ومادام هذا العالم فيه ما لم تقع عليه عين، أو سمعت به أذن، أو خطر على قلب إنسان، فهذا يعنى أن القرآن الكريم يقرب لنا صورة هذا العالم. . أما حقيقته فشىء يصعب على العقل إدراكه. . إنها صور تقريبية.

ولقد احتل الحديث عن البعث مساحة كبيرة فى الفلسفة الإسلامية. .

فهناك من قال: أن البعث سيكون للأرواح.

وهناك من قال: أن البعث سيكون بالروح والجسد ودارت مناقشات طويلة من خلال هذه الفلسفات حول كيفية عودة الأجساد

لأن هذه الأجساد التى تحولت إلى تراب، يعترى هذا التراب الذى كان جسدا إنسانيا متغيرات، فقد تُغذى جزيئاته نباتات الأرض، أو يكون هذا الإنسان قد ابتلعته أمواج الأنهار أو البحار، وأكلته الأسماك، أو احترق وتحول إلى رماد، فكيف يعود هذا الجسد كما كان على طبيعته؟

وهؤلاء الفلاسفة بهذا المنطق العجيب تخبطوا فى الظلمات ونسوا أن الله يقول للشىء كن فيكون. . فلا يستعصى على الله تعالى شيئاً. . والله الذى خلق العالم من عدم قادر على أن يعيد للأرواح أجسادها البالية.

وعندما تأثر الناس بالفلسفة اليونانية التى بدأت تنتشر فى العالم الإسلامى فى خلافة المنصور والمأمون، بدأت هذه التأثيرات تظهر فيما يسمى بالفلسفة الإسلامية. رغم ما فى الفلسفة من محاذير ومن هذه المحاذير أن الفلسفة ليس لديها مقياس للتفرقة بين الحق والباطل، وأن أراء الفلاسفة تختلف حول الموقف الواحد، كما أن هذه الفلسفة تبنى على الظن، لا على اليقين، ومن هنا كان من الصعب على هؤلاء الفلاسفة أن يصلوا بنا إلى اليقين وهم يتحدثون عن البعث وهل هو بالروح أو بالروح والجسد!

ومن هنا فقد حمل الإمام الغزالى على الفلسفة حملة عنيفة وبالطبع لم يكن ذلك من فراغ، فقد درس هذه المذاهب الفلسفية

دراسة عميقة، ثم كان رد على تلك الترهات من خلال فكر منظم عميق، مستندا إلى الكتاب والسنة فى كتابه (تهافت الفلاسفة) فالإمام الغزالى يتعجب عن كيفية السير وراء الفلسفة، بينما عندنا كتاب الله المعصوم. . وهو كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير.

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود أن الإمام الغزالى حمل على الأساس التى تقوم عليه الفلسفة وهو (العقل) حملة عنيفة، وهجم عليه هجوما قويا، لم يعتبر قط عند عن مهاجميه منذ ألف كتابه القيم (تهافت الفلاسفة) محاولة موفقه كل التوفيق، جريئة كل الجرأة طريفة كل الطرافة، وما كان المقصد الأول والهدف الأساسى لهجومه هدم الآراء نفسها، فبعضها صحيح موافق للدين، ومع ذلك فقد هدم الإمام الغزالى المنهج العقلى الذى استندت إليه هذه الآراء.

فخلود النفس مثلا رأى يقول به الغزالى. ويقول به الفلاسفة، ولكن الإمام الغزالى حمل معوله على طريقة الفلاسفة فى إثبات خلود النفس وهدم أدلتهم، وضرب بمعوله فيها فانهارت وتهافتت، ومع ذلك فقد كان هو مؤمنا بهذا الخلود، إنه لم يلتزم فى هذا الكتاب إلا تكدير مذهبهم، والتعبير فى وجه أدلتهم بما يبين تهافتهم!

ومقصوده: تنبيه من حسن اعتقاده فى الفلاسفة، وظن أن مسالكهم نقية عن التناقض ببيان وجوه تهافتهم.

ويقول: أنا لا أدخل فى الاعتراض عليهم إلا دخول مطالب مفكر، لا دخول مدع، مثبت، فأبطل عليه ما اعتقدوه، مقطوعا بإلزامات مختلفة.

فألزمهم تارة مذهب المعتزلة.

وثانية: مذهب الكرامية.

وطورا: مذهب الوقفية.

ولا أنهض ذابا عن مذهب مخصوص.

ويقول الأستاذ بلاسيوس بحق:

«إن الغزالى حينما سمى كتابه (تهافت الفلاسفة) - كان يريد أن يمثل لنا أن العقل الإنسانى يبحث عن الحقيقة، ويريد الوصول إليها، كما يبحث البعض عن ضوء النهار: فإذا أبصر شعاعاً يشبه نور الحقيقة، انخدع به، فرمى بنفسه عليه وتهافت فيه!

ولكنه يخطىء مخدوعاً بأقيسة منطقية خاطئة فيهلك كما يهلك البعوض.

فكأن الغزالى يريد أن يقول: «أن الفلاسفة خدعوا بأشياء أسرعوا إليها بلا إعمال روية، فتهافتوا، وهلكوا الهلاك الأبدى».

ويرى الإمام الدكتور عبد الحليم محمود أن محاولة ابن رشد - وهو أكبر المدافعين عن الفلاسفة فى كتابه (تهافت التهافت) - عملا غير مفيد فى حسم النزاع، إذ أن دائرة النزاع الحقيقية إنما هى الأساس الذى بنيت عليه الآراء وليست الآراء نفسها!

ويقول:

والواقع أن فكرة الإمام الغزالى لاتزال للآن تتسم بالسهولة والوضوح والقوة: لقد أخفقتم أيها العقليون والدليل على إخفاقكم اختلافكم المستمر، هذا الاختلاف أصبح وكأنه القاعدة والمبدأ العام.

* * *

إذن فنحن لا نلتفت إلى أقول بعض هؤلاء الفلاسفة فى أن الأرواح هى التى تحشر لا الأجساد، وهى التى تنال الجزاء أو العقاب.. فهى اجتهادات عقلية، وليست دليلا على شىء.

فالجرى وراء العقل ساق بعضهم إلى أن يقول أن الله يدرك الكليات دون الجزئيات.. وهذا يتنافى تماماً مع قدرة الله الشاملة المدركة لكل شىء حتى حركة الذرات فى دورانها:

﴿لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣].

إذن ما لنا نجرى وراء أفكار نخطئ ونُصيب ولا يكون وسيلتنا (الوحى) وهو لا يخطىء.. وآيات القرآن الكريم مليئة عن كيفية قيام العالم الآخر.. من نفخ فى الصور، إلى الحشر، ثم الحساب، ودخول الناس حسب ما قدمت أيديهم إما إلى النعيم أو الجحيم. حيث يصبح العالم الآخر هو الحياة الحقيقية، والتى نكتشف حقائقها عقب الرحيل عن الدنيا:

﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

إن الإنسان فى حياته الخالدة تلك يعيش حياته الحقيقية، فلن ينقص حياته مرض أو شيخوخة أو مشكلات الحياة التى كنا نصادفها فى دنيانا ونحن نجاهد فى سبيل لقمة العيش، وإنما هذه الحياة لا نصب فيها ولا تعب.

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وهى حقيقة مؤكدة يؤكدها قوله تعالى:

﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ [طه: ١٥، ١٦].

ولكن قيام الساعة لايمكن وصفه إلى بما وصفه الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج: ١، ٢].

ومن يقرأ الآيات التى تتحدث عن هذا اليوم الذى يجعل الولدان شيبا، لابد أن يفكر طويلا ليعمل لهذا اليوم، ويستعد بالزاد الذى يؤهله لملاقاة ربه العظيم الجليل.

يبدأ هذا اليوم العظيم بالنفخ فى الصور:

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا

وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الزمر: ٦٨ - ٧٠].

ونقف عند تفسير الإمام ابن كثير:

يقول تبارك وتعالى مخبرا عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة فقوله تعالى:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ﴾. هذه النفخة هى الثانية وهى نفخة الصعق وهى التى يموت بها الأحياء من أهل السماوات والأرض إلا من شاء الله كما جاء مصرحاً به مفسرا فى حديث الصور المشهور، ثم يقبض على أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت وينفرد الحى القيوم الذى كان أولا وهو الباقى آخرا بالديمونة والبقاء ويقول:

- لمن الملك اليوم؟ ثلاث مرات ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول:

- لله الواحد القهار. أنا الذى كنت وحدى وقد قهرت كل شىء وحكمت بالفناء على كل شىء، ثم يجىء أول ما يجىء إسرافيل ويأمره أن ينفخ فى الصور أخرى وهى النفخة الثالثة نفخة البعث قال: عز وجل:

﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

أى أحياء بعد ما كانوا عظاما ورفاتا وصاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٤]

وقال عز وجل:

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٥٢].

وقال جل وعلا:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥].

ويشرح قوله تعالى:

﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩]. أى أضاءت يوم القيامة إذا تجلى الحق جل وعلا للخلائق لفصل القضاء..

* * *

يوم رهيب يجازى الإنسان فيه بما كسبت يداه فإما إلى الجنة، وإما إلى النار.

أهل اليمين إلى الجنة:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ٧ - ٩].

فالعدل المطلق هو أساس هذا اليوم

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

يوم رهيب لايمكن تصوره.

ولكن رحمة الله بعباده لاتغيب وسط هذه الأهوال.. إذا كان القرآن الكريم فى سور عديدة يتحدث عن أهل الجنة وكيف ينعمون فيها.. وأهل النار وكيف يتعذبون فيها، فإن هذه الصور تقريب لعقولنا المحدودة عما سوف يحدث، أما واقع ما يحدث فهو شىء آخر.. لأن فى هذا العالم الآخر «ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».. والذى يمكن أن تستوعبه أن هناك نعيما متمثلا فى الجنة.

وشقاءً متمثلا فى النار.

* * *

ومن المعروف أن هناك العديد من الأحاديث الموضوعة عن يوم القيامة، وهذه الأحاديث مليئة بالخرافات ولا أصل لها فى صحيح الدين.

ويحدثنا الدكتور عبد الحليم محمود عن تصور المحاسبى فى كتاب عنه، بعد أن يسوق بعض الآيات القرآنية التى تصور ما سيحدث يوم القيامة بالنسبة للمنعمين فى الجنة أو المعذبين فى النار ويقول:

«والمحاسبى يتحدث عن القيامة فى مواضع مختلفة من مؤلفاته، وهو يسعى بذلك - على النهج القرآنى فى تحذير الناس -

إلى غرس التقوى فى قلوبهم بالوعد والوعيد. وقد خصص كتابا لوصف اليوم الآخر، وما يلقاه الإنسان بعد الممات هو كتاب (التوهم).. والواقع أنه لم يصدر هذا المؤلف كبحث دينى لشرح ما سوف يكون يوما ما فى الآخرة، ولكنه يصور فيه العالم الآخر ومصير الإنسان حسبما يتخيله هو منهما.. وهو لايناقش حجة، أو يذكر مصادر علم وإن كان لايخرج عن إطار فكر أهل السنة.

وكتاب التوهم لم يصدر عن عالم الهيئات، بل هو من إنشاء شاعر روائى، وأروع ما يلفت نظر القارىء له - بادىء ذى بدء - أسلوبه العربى الباهر، الذى يعتبر من مآثر المحاسبى الباقية على مر الزمن، ثم أنه جعل من وصفه الآخرة نموذجاً أدبياً فريداً، واستطاع أن ينفذ بكل فصل منه إلى أعماق قلوب قارئيه.

وليس لنا هنا أن نتناول مزايا هذا الكتاب من ناحية اللغة والأسلوب وإنما لنلتقى بوحى هيكله الأساسى.

يرى المحاسبى أن الإنسان إذا حضر أجله رأى ملاك الموت فى مظهر جميل غاية فى الجمال، أو فى مظهر مخيف، ويحدثه هذا الملاك إما بالوعود الباسمة، وإما بالوعيد حسبما أوتى فى دنياه من خير أو شر.

وبعد أن يهال عليه التراب، ينزل إليه ملكان يسألانه، فإذا كانت حياته خيرا يسرت عليه الإجابة، وإن كانت حياته شرا، تردد فى الإجابة وأثقل عليه.

ويفتح المكان طاقة فى القبر يلمح فيها الجنة بكل روعتها، أو جهنم وما أعد فيها من عذاب، طبقا لما كانت عليه إجاباته. ويندثر الجسم الميت، ولكن يبقى فى روحه إلى يوم (البعث)، إما السعادة وإما الشقاء، فإذا مات سائر البشر ولم تعد الأرض تحمل مخلوقات، ولم يبق إلا الله الخالد، تسمع أرواح الناس نداء يدعوها إلى الحساب الأخير عندئذ تنشق القبور، ويخرج منها الجميع إلى حيث المصدر.

* * *

إن عالم الخلود إذن هو العالم الآخر . . هو الحياة الحقيقية . . لايذوق الإنسان فيه مرة أخرى الموت، ولايعرف الشيخوخة، ولا الأمراض. . إنما هو نعيم مقيم، لايمكن أن تتصوره أو تتخيله لأنه فوق التصور والتخيل . .

ولا أجد ختاماً لهذا الكتاب إلا ما أختتم به الإمام (أبو حامد الغزالى) كتاب الاحياء فى سعة رحمة الله تعالى على سبيل التفاؤل بذلك . .

يقول أبو حامد الغزالى:

سعة رحمة الله تعالى على سبيل التفاؤل بذلك.

فقد كان رسول الله ﷺ يحب الفأل. وليس لنا من الأعمال ما نرجو به المغفرة، فنقتدى برسول الله ﷺ فى التفاؤل. ونرجو

أن يختم عاقبتنا بالخير فى الدنيا والآخرة، كما ختمنا الكتاب بذكر رحمة الله تعالى. فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨]. وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

ونحن نستغفر الله تعالى من كل مازلت به القدم، أو طغى به القلم فى كتابنا هذا وفى سائر كتبنا، ونستغفره من أقوالنا التى لاتوافقها أعمالنا، ونستغفره مما ادعيناه وأظهرناه من العلم والبصيرة بدين الله تعالى مع التقصير فيه، ونستغفره من كل علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم ثم خالطه غيره، ونستغفره من كل وعد وعدناه به من أنفسنا ثم قصرنا فى الوفاء به، ونستغفره من كل نعمة أنعم بها علينا فاستعملناها فى معصيته، ونستغفره من كل تصريح وتعريض بنقصان ناقص وتقصير مقصر كنا متصفين به، ونستغفره من كل خطرة دعتنا إلى تصنع وتكلف تزينا للناس فى كتاب سطرناه، أو كلام نظمناه، أو علم أفدناه أو استفدناه. ونرجو بعد الاستغفار من جميع ذلك كله لنا ولمن طالع كتابنا هذا أو كتبه، أو سمعه، أن نكرم بالمغفرة، والرحمة، والتجاوز عن جميع السيئات ظاهرا وباطنا، فإن الكرم عميم، والرحمة واسعة، والجود على

أصناف الخلائق فائض، ونحن خلق من خلق الله عز وجل لا وسيلة لنا إليه إلا فضله وكرمه، فقد قال: رسول الله ﷺ «إن لله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والطير والبهائم والهوام فيها يتعاطفون وبها يتراحمون وأخر تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة».

ويروى أنه إذا كان يوم القيامة، أخرج الله تعالى كتابا من تحت العرش فيه: «إن رحمتى سبقت غضبى، وأنا أرحم الراحمين. فيخرج من النار مثلا أهل الجنة».

وقال رسول الله ﷺ: «يتجلى الله عز وجل لنا يوم القيامة ضاحكاً فيقول أبشروا معشر المسلمين فإنه ليس منكم أحد إلا وقد جعلت مكانه فى النار يهودياً أو نصرانياً».

وقال النبى ﷺ: «ويُشَفِّع الله تعالى آدم يوم القيامة من جميع ذريته فى مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف».

وقال ﷺ: «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة للمؤمنين هل أحببتم لقائى: فيقولون: نعم ياربنا. فيقول: لِمَ. فيقولون: رجونا عفوك ومغفرتك. فيقول: قد أوجبت لكم مغفرتى».

وقال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل يوم القيامة أخرجوا من النار من ذكرنى يوماً أو خافنى فى مقام».

وقال رسول الله ﷺ: «إذا اجتمع أهل النار فى النار ومن

شاء الله معهم من أهل القِبْلة قال: الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين. قالوا: بلى. فيقولون: ما أغنى عنكم إسلامكم إذ أنتم معنا فى النار. فيقولون: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها، فيسمع الله عز وجل ما قالوا فيأمر بإخراج من كان فى النار من أهل القبلة فيخرجون، فإذا رأى ذلك الكفار قالوا: ياليتنا كنا مسلمين فنخرج كما أخرجوا» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿**رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ**﴾ [الحجر: ٣].

وقال رسول الله ﷺ: «لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها».

وقال جابر بن عبد الله: من زادت حسناته على سيئاته يوم القيامة فذلك الذى يدخل الجنة بغير حساب. ومن استوت حسناته وسيئاته فذلك الذى يحاسب حسابا يسيرا ثم يدخل الجنة. وإنما شفاعة رسول الله ﷺ لمن أوبق نفسه وأثقل ظهره.

ويروى أن الله عز وجل قال لموسى عليه السلام: ياموسى، استغاث بك فرعون فلم تغثه. وعزتى وجلالى لو استغاث بى لأغثته وعفوت عنه.

وقال سعد بن بلال: يؤمر يوم القيامة بإخراج رجلين من النار، فيقول الله تبارك وتعالى. ذلك بما قدمت أيديكما وما أنا بظلام للعبيد، ويأمر بردهما إلى النار، فيعدو أحدهما فى سلاسله حتى

يقتحمها، ويتلكأ الآخر، فيؤمر بردهما، ويسألهما عن فعلهما. فيقول الذى عدا إلى النار: قد حذرّت من وبال المعصية، فلم أكن لأتعرض لسخطك ثانية. ويقول الذى تلكأ: حسنُ ظنى بك كان يشعرنى أن لاتردنى إليها بعد ما أخرجتنى منها. فيأمر بهما إلى الجنة.

وقال رسول الله ﷺ: «ينادى مناد من تحت العرش يوم القيامة يا أمة محمد أما ما كان لى قبلكم فقد وهبته لكم وبقيت التبعات فتواهبوها وادخلوا الجنة برحمتى».

ويروى أن أعرابيا سمع ابن عباس يقرأ ﴿**وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا**﴾ [آل عمران: ١٠٣]. فقال الأعرابى: والله ما أنقذكم منها وهو يريد أن يوقعكم فيها. فقال ابن عباس: خذوها من غير فقيه.

وقال الصنابحى: دخلت على عبادة بن الصامت وهو فى مرض الموت، فبكيت، فقال: مهلا لم تبكى؟ فو الله ما من حديث سمعته من رسول الله ﷺ لكم فيه خير إلا حدثتكموه، إلا حديثا واحد، وسوف أحدثكموه اليوم وقد أحيط بنفسى. سمعت رسول الله ﷺ يقول «من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرم عليه النار».

وقال: عبد الله بن عمرو بن العاص: قال: رسول الله ﷺ «إن الله يستخلص رجلاً من أمتى على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل منها مثل مَدِّ البصر ثم يقول: أتنكر من هذا شيئا؟ أظلمتك كتبتى الحافظون؟ فيقول: لايارب. فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يارب. فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. فيقول: يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات. فيقول: إنك لاتظلم. قال: فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة . قال: فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شىء.

وقال رسول الله ﷺ فى آخر حديث طويل يصف فيه القيامة والصراط «إن الله يقول للملائكة من وجدتم فى قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من النار فيخرجون خلقاً كثيراً ثم يقولون: يا ربنا لم نذر فيها أحداً ممن أمرتنا به، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقاً كثيراً ثم يقولون: ياربنا لم نذر فيها أحداً ممن أمرتنا به ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: ياربنا لم نذر فيها أحداً ممن أمرتنا به» فكان أبو سعيد يقول: إن لم تصدقونى بهذا الحديث فاقرأوا إن شئتم: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا**

عَظِيماً ﴾[النساء: ٤٠]. قال: فيقول الله تعالى شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط قد عادوا حمماً فيلقيهم فى نهر فى أفواه الجنة يقال: له نهر الحياة فيخرجون منها كما تخرج الحبة فى جميل السيل ألا ترونها تكون مما يلى الحجر والشجر ما يكون إلى الشمس أصفر وأخضر، وما يكون منها إلى الظل أبيض، قالوا: يارسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية. قال: فيخرجون كاللؤلؤ فى رقابهم الخواتيم يعرفهم أهل الجنة يقولون: هؤلاء عتقاء الرحمن الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه ثم يقول: ادخلوا الجنة فما رأيتم فهو لكم فيقولون: ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحداً من العالمين فيقول الله تعالى: إن لكم عندى ما هو أفضل من هذا. فيقولون: يا ربنا أى شيء أفضل من هذا؟ فيقول: رضائى عنكم فلا أسخط عليكم أبداً» رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما.

وروى البخارى أيضا عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «عرضت على الأمم يمر النبى ومعه الرجل والنبى ومعه الرجلان والنبى ليس معه أحد والنبى معه الرهط. فرأيت سواداً كثيراً فرجوت أن تكون أمتى فقيل لى هذا موسى وقومه، ثم قيل لى: انظر فرأيت سواداً كثيراً قد سدّ الأُفق، فقيل لى: انظر هكذا وهكذا فرأيت سواداً كثيراً، فقيل لى: هؤلاء أمتك ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب فتفرق

الناس ولم يبين لهم رسول الله ﷺ. فتذاكر ذلك الصحابة فقالوا: أما نحن فولدنا فى الشرك، ولكن قد آمنا بالله ورسوله، هؤلاء هم أبناؤنا، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «هم الذين لايكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون» فقام عكاشة فقال: ادع الله أن يجعلنى منهم يارسول الله. فقال: «أنت منهم» ثم قام آخر فقال: مثل قول عكاشة. فقال النبى ﷺ «سبقك بها عكاشة».

وعن عمرو بن حزم الأنصارى قال: تغيب عنا رسول الله ﷺ ثلاثا لايخرج إلا لصلاة مكتوبة ثم يرجع. فلما كان اليوم الرابع خرج إلينا فقلنا يارسول الله احتبست عنا حتى ظننا أنه قد حدث حدث. قال: «لم يحدث إلا خيرا إن ربى عز وجل وعدنى أن يدخل من أمتى الجنة سبعين ألفاً لاحساب عليهم وإنى سألت ربى فى هذه الثلاثة أيام المزيد فوجدت ربى ماجداً واجداً كريماً فأعطانى مع كل واحد من السبعين ألفاً سبعين ألفاً قال: قلت يارب وتبلغ أمتى هذا قال: أكمل لك العدد من الأعراب».

وقال أبو ذر: قال رسول الله ﷺ «عرض لى جبريل فى جانب الحرة فقال: بشر أمتك أنه من مات لايشرك بالله شيئاً دخل الجنة. فقلت: ياجبريل وإن سرق وإن زنى. قال: نعم وإن سرق وإن زنى، قلت: وإن سرق وإن زنى؟ قال: وإن سرق وإن زنى. قلت: وإن سرق وإن زنى. قال: وإن سرق وإن زنى وإن شرب الخمر».

وقال أبو الدرداء: قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ

جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]. فقلت: وإن سرق وإن زنى يارسول الله؟ فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ فقلت: وإن سرق وإن زنى؟ فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ فقلت: وإن سرق وإن زنى يارسول الله؟ قال: «وإن رغم أنف أبى الدرداء».

وقال رسول الله ﷺ «إذا كان يوم القيامة دفع إلى كل مؤمن رجل من أهل الملل فقيل له هذا فداؤك من النار».

وروى مسلم فى الصحيح عن أبى بردة، أنه حدّث عمر بن عبد العزيز عن أبيه أبى موسىٓ، عن النبى ﷺ قال: «لايموت رجل مسلم إلا أدخل الله تعالى مكانه فى النار يهودياً أو نصرانياً» فاستحلفه عمر بن عبد العزيز بالله الذى لا إله إلا هو - ثلاث مرات أن أباه حدثه عن رسول الله ﷺ، فحلف له.

وروى أنه وقف صبى فى بعض المغازى ينادى عليه فيمن يزيد -فى يوم صائف شديد الحرّ- فبصرت به امرأة فى خباء القوم، فأقبلت تشتد، وأقبل أصحابها خلفها، حتى أخذت الصبى وألصقته إلى صدرها، ثم ألقت ظهرها على البطحاء وجعلته على بطنها تقيه الحرّ، وقالت: ابنى ابنى! فبكى الناس وتركوا ما هم فيه، فأقبل رسول الله ﷺ حتى وقف عليهم، فأخبروه الخبر فسر برحمتهم ثم بشرهم فقال: «أعجبتم من رحمة هذه لابنها؟» قالوا: نعم.

قال ﷺ: «فإن الله تبارك وتعالى أرحم بكم جميعاً من هذه بابنها» فتفرق المسلمون على أفضل السرور وأعظم البشارة.

فهذه الأحاديث وما أوردناه فى كتاب الرجاء يبشرنا بسعة رحمة الله تعالى: فنرجو من الله تعالى أن لايعاملنا بما نستحقه، ويتفضل علينا بما هو أهله، بمنه وسعة جوده ورحمته.

* * *


(١٠)
وتبقى كلمة

في قراءة سريعة لعشرات الكتب في الأدب والفلسفة والشعر ومختلف العلوم، بجانب قراءة واستيعاب عشرات الكتب في الدين وعلومه، كانت هذه الرحلة. . أو الإبحار في ملكوت الله. . وكل هذه الكتب وما تحويه من دراسات وأفكار ونظريات، كانت مجرد (منظار مكبر) من خلاله حاولت أن أعرف. . وما أصعب المعرفة. . وما أصعب الوصول إلى شواطىء الحقيقة. . فالحقيقة عزيزة المنال، ولكن محاولة الاقتراب منها، ومعرفة بعض أبعادها، يقوى فينا ملكات الإدراك والتخيل والتصور، وهذه الملكات تجعلنا ندرك كم أن كون الله عظيما إلى أبعد ما تكون العظمة، وبالتالي فإن قدرته - جل علاه - قدرات تفوق إدراك العقل البشري. . فهو يقول للشيء (كن فيكون).

وكم من عالم عاش حياته كلها يحاول أن يدرك سر الحياة، ومات ولم يقترب إلا من شواطىء المحيط أما المحيط نفسه فمليء بالأسرار.

وكم من مفكر عاش طوال حياته يفكر في معنى هذا الوجود ومات وهو لم يدرك إلا أقل القليل.

وهناك من الزهاد والعباد والمتصوفة من أضناه البحث عن الحقيقة، فلم تبدى لهم عن طريق الإلهام خيطا من نور، فقد بعضهم عقله وعاش مجذوبا. . معرضا عن دنيا الناس، متعلقا قلبه بهذا الوميض الذي جعل الدنيا لا تساوى عنده جناح بعوضه.

ومنهم من بلغ بهم الشوق والحب مداه لخالق هذا الوجود، بعد أن رأوا بقلبوهم.. جمال انشراح الصدر، وروعة الإيمان، ولذة اليقين، فهاموا حبا بالله، وعاشوا فى الله وبالله.

ها هو عمر بن الفارض يهيم حبا بالذات الإلهية، وينتشى بخمر هذا الحب الذى وصفها بهذا الشعر الجميل:

يقولون لى صفها فأنت بوصفها

خبير ، أجل عندى بأوصافها علم

صفاء ولا ماء ولطف ولا هوى

ونور ولا نار وروح ولا جسم

تقدَّم كلَّ الكائنات حديثُها

قديما ولا شكل هناك ولا رسم

وهامت بها روحى بحيث تمازجها

اتحادا ولا جرم تخلَّله جُرمُ

ولاتبلها قبل ولا بَعْدَ بعدها

وقَبليّةُ الأبعاد فهى لها حَتْمُ

أن هذه المدامة الإلهية الغريبة يشرحها الدكتور شوقى ضيف، بأن ابن الفارض يصرح بأن المدامة التى شرب من دنها ليست مقيدة بالمادة وأشكالها من ماء ونار وجسم، بل هى نور روحانى صاف،

نور يتقدم كل الأكوان بكائناتها ومظاهرها، قبل أن يتخلّق أى شكل وأى رسم وأى وجود، وهو نور كانت تمتزج به حينئذ وتتحد أقباس الأنبياء وتابعيهم من المتصوفة، حين كانت لاتوجد سوى الحقيقة الإلهية متحدة بالحقيقة المحمدية، أو بعبارة أخرى حين كان لايوجد سوى الله مدبر الكون فيما بعد ومنشئه ومبدعه بكل ما فيه من جواهر وأجرام وأجسام، حيث كان متفردا بوجوده الأزلى الذى لاسابق له ولا نهاية. . فهو الأول وهو الآخر، وهو الأزلى الخالد، أصل كل الكون ونبع كل الوجود.

وهذا الحب الإلهى كان هو كل شىء بالنسبة (لابن عربى) والأديان كلها منبعها وحى السماء. . فهو القائل:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى

إذا لم يكن دينى إلى دينه دانى

لقد صار قلبى قابلا لكل صـورة

فمـرعى لغزلان وديـر لرهبان

وبيت لأوثـان وكعبـة طـائـف

وألواح توراة ومصحف قـرآن

أدين بدين الحب أنى توجهت

ركائنه فالحب دينى وإيحائى

وهذا الحب الذى جعل (رابعة العدوية) تترنم بهذه الأبيات:

إنى جعلتك للفؤاد محدثى

وأبحت جسمى من أراد جلوسى

فالجسم منى للجليس مؤانس

وحبيب قلبى فى الفـــؤاد أنيسى

وهل هناك أجمل وأروع من تلك الترنيمة التى كانت تترنم بها، وقد شعرت بجمال المفاجأة للحبيب الأعظم واهب الوجود، وخالق كل شىء، وهو بعباده الرءوف الرحيم

فليتك تحلو والحـياة مـريـرة

وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذى بينى وبينك عامـر

وبينى وبين العالمين خـــراب

إذا صح منك الود فالكل هين

وكل الذى فوق التراب تراب

وهو أيضا صاحب هذه الكلمات الخالدة التى تمثل الحب الإلهى أجمل تمثيل، وترينا أن حب الله هو النجاة من كل شىء.. هو الطريق إلى النور والأمن والأمان.. فى رحاب الخالق العظيم.

أحبك حبين حب الهـوى

وحـبـاً لأنـــك أهـــل لـــذاك

فأما الذى هو حب الهوى

فحب شغلت به عمن ســواك

وأما الذى أنـت أهـــل لـه

فكشفك لى الحجب حتى أراك

فما الحمد فى ذا ولاذاك لى

ولكن لك الحمـــد فى ذا وذاك

منتهى الأمل فى الله . .

الله . . الذى وسعت رحمته كل شىء فى السماوات والأرض . . واهب الحياة، وخالق كل شىء، وإليه الرجعى ومما يروى عن (الحب الإلهى) الذى يسمو بصاحبه إلى مدارج النور ما قاله أبو بكر الكتانى :

«جرت مسألة فى المحبة بمكة أعزها الله تعالى - أيام الموسم - فتكلم الشيوخ فيها، وكان الجنيد أصغرهم سنا .

فقالوا : هات ما عندك يا عراقى؟

فأطرق رأسه، ودمعت عيناه، ثم قال :

عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرقت قلبه أنوار هيبته. . وصفا شربه من كأس وده، وانكشف له الجبار من أستار غيبه.

فإن تكلم فبالله.

وإن نطق فعن الله.

وإن تحرك فبأمر الله. .

وإن سكن فمع الله. . فهو بالله ولله ومع الله. .

* * *

إن الإنسان فى دنياه على سفر. . وعندما تمضى أيامنا على الأرض، وإلى أن تقوم الساعة، بعد أن تتوافد على الأرض ماشاء الله أن يتوافد عليها من مخلوقات فإننا نرجو رحمة الله. . ورحمة الله تسع كل شىء.

* * *

المـراجـع

- **القرآن الكريم**
- **تفسير القرآن العظيم** - لابن كثير
- **المصحف المفسر** - محمد فريد وجدى
- **التفسير الوسيط للقرآن الكريم** - للدكتور محمد سيد طنطاوى
- **إلى القرآن العظيم** - الشيخ محمود شلتوت
- **صحيح البخارى** - للإمام البخارى
- **صحيح مسلم** - للإمام مسلم
- **قصص الأنبياء** - لابن كثير
- **الإسلام عقيدة وشريعة** للشيخ محمود شلتوت
- **منهج الإسلام فى بناء المجتمع** - الشيخ محمود شلتوت
- **إسلام لا شيوعية** - د. عبد المنعم النمر
- **الدين والوحى فى الإسلام** - الشيخ مصطفى عبد الرزاق
- **رسالة التوحيد** - الشيخ محمد عبده
- **إحياء علوم الدين** - الإمام الغزالى
- **القصة القرآنية** - فتحى رضوان

- **مع القرآن الكريم فى دراسة مسلتهمة** - على النجدى حافظ
- **الروحية طريق الحياة** - د. عبد العزيز جادو
- **طبيعة الحياة** - فرانسيس كريم ترجمة د. أحمد مستجير
- **الإنسان بين المادية والإسلام** - محمد قطب
- **من عبقرية الإسلام** - د. نعمات أحمد فؤاد
- **الله** - د. مصطفى محمود
- **لغز الموت** - د. مصطفى محمود
- **أعلام الأدب الإنسانى** - إبراهيم المصرى
- **معا على الطريق** - خالد محمد خالد
- **الموعد الله** - خالد محمد خالد
- **فى مفترق الطريق** - د. زكى نجيب محمود
- **الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة** - د. شوقى ضيف
- **فصول من الشعر ونقده** - د. شوقى ضيف
- **أسماء الله الحسنى ودراسة فى البنية والدلالة** - د. أحمد مختار عمر.
- **خاتم النبيين** - الشيخ محمد أبو زهرة
- **وحى السيرة** - أحمد التاجى

- **البيان المحمدى** - د. مصطفى الشكعة
- **الإسلام والعلم الحديث** - عبد الرزاق نوفل
- **رسالة التوحيد** - الإمام محمد عبده
- **القرآن مأدبة الله للعالمين** - أحمد حسن الباقورى
- **عقائد المسلمين والعقائد الباطلة** - د. محمد عبد المنعم القيعى
- **وعد الله وإسرائيل** - عبد الحميد جوده السحار
- **القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم** - موريس بوكاى.
- **مشاهد يوم القيامة** - الشيخ محمد متولى الشعراوى
- **معجزة القرآن** - الشيخ محمد متولى الشعراوى
- **العبقريات** - عباس محمود العقاد
- **ظواهر الخروج من الجسد** - د. رءوف عبيد
- **القصة فى القرآن** - محمد قطب عبد العال
- **مقاصد دينية . . قيم فنية** - محمد قطب عبدالعال
- **الفكر الشرقى القديم وبدايات التأمل الفلسفى** - د. جمال المرزوقى
- **مشكلات الموت عند صوفية الإسلام** - رسالة دكتوراه للدكتور مجدى محمد - إبراهيم أحمد عبد العاطى

- **النموذج المصرى للوحدة الوطنية** - د. إدوار غالى الدهبى
- **الفلسفة والحقيقة** - د. عبد الحليم محمود
- **مدخل إلى التصوف الإسلامى** - د. أبو الوفا التفتازانى
- **رابعة العدوية بين الغناء والبكاء** - د. سعاد عبد الرازق
- **العوالم الخفية والقرآن الكريم** - مأمون غريب
- **حياة محمد** - د. محمد حسين هيكل
- **لغز الزمن** - مقال ترجمة فؤاد شاكر
- **الشقيقة والخلافة** - عبد الفتاح عبد المقصود

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
* مقدمة	٥
(١) على شواطئ الفكر والفلسفة	١٧
(٢) على شواطئ العلم	٤١
(٣) على شواطئ الدين	٦٥
(٤) فى حدائق الإيمان	٨٥
(٥) مع القرآن العظيم	١٠٥
(٦) القرآن عطاء دائم	١٢٥
(٧) القصص القرآنى	١٤٩
(٨) الموت بوابة الآخرة	١٦٥
(٩) الحياة الخالدة	١٩٥
(١٠) وتبقى كلمة	٢١٧
* المراجع	٢٢٥

رقم الإيداع
٩٩ / ١٨٠٢٧
I.S.B.N
977 - 294 - 171 - 6

مطابع أمـون

٤ الفيروز من ش إسماعيل أباظة
لاظوغلى - القاهرة
تليفون : ٢٥٤٤٥١٧ - ٢٥٤٤٣٥٦